الفصل الخامس

هنري روبير

٤ سبتمبر ١٨٦٣ – ١٣ مايو ١٩٣٦

"أتعرفين السر الحقيقي للمرتجلين؟!...

... أنهم لا يرتجلون أبدًا!!"

بربيه

محامي العصر الحديث

وهذا طراز عبقري، سبق بفنه بني العصر، فغدا أسلوبه اليوم، وفيما بعد اليوم، هو الأسلوب العصري.

ولما أبنه النقيب "دي مورو جيافري" قال إن المحاماة فقدت أكبر رجل رفع شأنها منذ عهد "برييه". وهي أبلغ مقالة عن مكانته في التاريخ. فلعل "برييه" أكبر رجال المحاماة في التاريخ الفرنسي، كما كان أعجوبة البلاغة والشجاعة في مجلس النواب ومجلس الأعيان.

هو الذي حمل لواء الدفاع عن "لمنيه" وعن "شاتوربريان" حين هف للدوقة "دي بري" "سيدتي إن ابنك هو الملك" وكان لويس فيليب يومئذ هو الملك!.. وهو الذي ترافع عن "لويس نابليون" عندما طُلب إعدامه فأنقذ رأسه ليصير بعد سنين جلالة الإمبراطور.. ولما عقد "روبير كويلار" موازنة بينه وبين عظماء البيان في التاريخ الفرنسي الحديث قال: "سمعت "ميرابو" في مجده، وسمعت "دي سر" وسمعت "لينيه" لكن أحدًا لم يعدل "برييه" في العناصر الأساسية التي يتكون منها الخطيب".

وفيما هو إلى جوار المتهم في إحدى جنايات القتل انطلق المدعي المدني "النقيب كرسون" يحذر القضاة أن تأخذهم روعة الدفاع الذي سيدلي به إليهم فخر للتاريخ القضائي في فرنسا!

فإذا جاء بعده هنري روبير دون أن يقف أمامه "شبه دستانج" و "ليون ديفال" أو "جول فافر" أو "روس" أو "ألو" أو المحامي الذي لم تكد الإمبراطورة "يوجيني" ترى هنري روبير في سنة ١٩١٤ حتى ذكرته له بعد وفاته باثنين وثلاثين عامًا!.. أعني "لاشو" صديق الإمبراطور الشخصي ثم "جامبتا" زعيم فرنسا ثم "باربو" أو "كارتييه" و "مارتيني" الذي أنقذ شارل دلسبس بدفعه بسقوط الحق في رفع الدعوى العمومية لسقوط التهمة. ثم "دي بوي" أستاذ بوانكاريه والرئيس "بوانكاريه" نفسه، رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ومحامي "جونكور" المجمع العلمي والرئيس "بارتو" مؤرخ "ميرابو" و "دانتون" و "لامرتين" ثم الرئيس فيفياني ثم "شني" "أفضلنا" كما كان يدعو "هنري روبير" والرئيس "والدك روسو" والنقيب "بيو" حفيد النقيبين أو قل الوزيرين "بيو" نقيب نانت و "باروش" "نقيب باريس" و "لابوري" العظيم.. إذا جاء هنري روبير بعد "برييه" دون هؤلاء وأولاء. ولم ير "جيافري" أنهم أعلو شأن المحاماة كما أعلى شأنها "هنري روبير" فأعظم بمنزلته في التاريخ.

والحق أن هنري روبير" سما إلى ذلك الأوج لأسباب خاصة، لقد ظل ربع قرن محامي فرنسا الأول، حتى ليكاد المرء يخاله وصف نفسه في عالم المحاماة بما وصف به "فيكتور هيجو" في عالم الأدب، فيما سماه "مرافعة عن العصور الماضية" بأنه "استوى على عرش الأدب نصف قرن كأنه نصف إله" – وفرنسا أمة محامين تحكمها حكومات محامين.

وكان هنري روبير "نقيب الحرب" كما كانوا ينعتونه إذ أجلت انتخابات المحامين إلى نهاية الحرب الكبرى الأولى ولم يسمح بالانتخابات السنوية إلا في سنة ١٩١٩ فاقترن اسمه بالنظام القضائي طيلة أيام المحنة.

وكان يلقى في تأبين الضرعى من الزملاء كلمات تخلب الألباب، ويمثل المحاماة في كل معترك، ويحمل رداءها ولواءها عند الجميع، فلما خمد لهب جهنم لم تخب تلك الشهرة اللامعة، حتى ليسأل "مارشال هول" الأستاذة الفرنسية "أوديت سيمون" في أعقاب إحدى مرافعاته: "ترى هل أجدت كما يجيد هنري روبير؟".

وارتلعت هذه الكفايات من مستوى الذين يموتون إلى مستوى الذين لا يموتون إذ انتخب عضوًا في "المجتمع العلمي" وأضحى واحدًا من "الأربعين الخالدين".

* * *

ولد "هنري روبير" في ٤ من سبتمبر سنة ١٨٦٣ وشغفته الفصاحة حبًا منذ حداثته الباكرة وعشق الإلقاء. وكان في عهد الطلب ينشد الشعر ويمارس التمثيل أمام الأصدقاء والقرناء، وفي ٢٩ من أكتوبر سنة ١٨٨٥ حلف اليمين لينتظم في سلك المحامين، فلم يكد يقضي مدة التمرين حتى انتخب في يوليو سنة ١٨٨٧ بتأييد النقيب "مارتيني" سكرتيرًا لمؤتمر المحامين، وبهذا النجاح الانتخابي أضيف اسمه إلى أمجد أسماء الرجال في فرنسا مثل الرؤساء "بوانكاريه" و "فيفياني" و "جاميتا" و "بارتو" و "روبيو" والسفير "كامبون" أولئك الذين كانت سكرتارةي المؤتمر أولى درجات المجد لهم.

وانتخب معه اثنان آخران يكفي أن تعرف اسميهما لتدرك مقدار ما يتعاون الماضي مع المستقبل. أولهما الأستاذ "أوتين" الذي تولى توزيع العدالة وشرع الأحكام من كرسيه في رياسة دائرة محكمة النقض أما ثانيهما فهو مفخرة المحاماة الفرنسية "فرنان لابوري".

لم يكد "روبير" يستمرئ حلاوة الظفر، بسكرتارية المؤتمر، حتى راح يضرب في أعالي "الفوج" ليبستجم، وفيما هو يركض فوق القمم، جاءه خطابان، يسألانه أيقبل أن يكون سكرتيرًا للنقيب "درييه" فأبرق بقبوله، وتولى أعمال المكتب في أكتوبر سنة ١٨٨٧.

قضى السكرتير الجديد عامين في مكتب النقيب، حتى قبض الله إليه النقيب، فلم تبرح ذاكرته ذكراه، إلى أن قضى هو الآخر. فتراه يهدي إليه بعد أربعين عامًا كتابه "المحامي" ويختصه بأروع الصفات في مؤلفاته، إذ كان "درييه" أبًا يخلص الحب ولم يكن أستاذًا فحسب، وكان يفتح صدره لسكرتيره، ويفتح أمامه أيضًا أبواب داره.

وفي نوفمبر من عام ١٨٨٨ رحل النقيب والسكرتير لمرافعته في قضية "شامبيج" وهو فتى فرنسي سليل أسرة ذات حسب، أتم دراساته في باريس وشارك في الأدب، واتصلت أسبابه "ببول بورجيه" كما يقول "هنري روبير".

أحب "شامبيج". في الثالثة والعشرين من عمره، مدام "جريل" زوج المفتش العام الفرنسي للسكك الحديد في قسطنطينية بالجزائر، وكانت إنجليزية الأصل تكبره بشعر حجج، تحيط بها هالة من التقى والورع، والأمومة المثلى والزوجية المرتجاة، لكن تباريح الغرام، بعد عام وبعض عام، كانت كافية لتعاهد فتاها على القرار معًا، إلى العالم الآخر.. بالانتحار، فأطلق عليها مسدسه في يناير ١٨٨٨ فأرداها، وأطلقه على نفسه فلم يصب منها مقتلاً.. وقدم إلى محكمة الجنايات.

ووصلته القضية مرة أخرى، "ببول بورجيه" فأوحت إلى عميد "الأكاديمي" الراحل أروع مؤلفاته كتاب "التلميذ" على قول. وعلى قول آخر شهد به "أناتول فرنس" إن الجريمة وقعت مشابهة لما كان يدور في خيال "بورجيه".

ترافع "دريبه"، وترافع في إثره سكرتيره ففتح لنفسه طريق الخلود..

وقضى سنوات سبع من الأشغال الشاقة، خففها رئيس الجمهورية إلى السجن.

وذات مساء مشت هيئة الدفاع كاملة بخطى متثاقلة، وقلوب وجلة، على ضوء الشموع، لا إلى المحكمة ولكن إلى المقهى. ولا لتطلع على المستندات، ولكن لنطلع على رقص "أولاد نايل".

وهمس "دريبه" في أذن سكرتيره "يا صديقي ماذا يقول مجلس النقابة إذا رآنا ههنا!". فأجابه زعيم الارتجال: "هو بلا شك يحسدك يا سيدي النقيب!".

وبعد أن صحبه "دريبه" إلى المجد في تلك القضية، صحبه ليستجم في تونس، وكان "دريبه" محاميًا عن الحكومة التونسية في فرنسا.

وانقضى عامان، ومات "دريبه" بالتهاب رئوي أصابه وهو يبرح "قصر التويلري" إثر دعوى عند رئيس الجمهورية.

* * *

مشى "روبير" قدمًا في عالم المحاماة، وكانت قد صمتت أفواه "بريبه" ولا "لاشو" و "جول فافر" و "دريبه" وأمثالهم من قبلهم.

وكانت الحياة رخية في أعقاب حرب السبعين، فلم يك يخشى على الكفايات الرفيعة من حمى الجشع والأساليب التي تخلقها عقد الحياة العصيبة، وتهيأت للمحامي الناشئ قضايا هائلة كان من مستواها، فلم يكد بلغ الثلاثين حتى ترافع عن "الأمباشي جوماي" في قتل "الام جيروند" سنة ١٨٨٩ وأعدم موكله.

لكن اليأس لم يعرف سبيلاً إلى نفسه لأن المحاماة صناعة الأمل، والمحامي الموهوب لا يثنيه يومه عن غده، ولا ألمه عن أمله.

وواتته الفرصة الكبرى يوم ترافع عن "جبريل "بومبار" سنة ١٨٩٠ ضد النائب العمومي العظيم "كزناي دي بوربير".

في هذه القضية سمع القضاء لأول مرة في تاريخه من المحامي الشاب أن من الجارمين من يقترف الجريمة تحت تأثير التنويم المغناطيسي!

ودعت المحكمة أساتذة الجامعات، وأخليت القاعة لإجراء التجارب! وسلط النائب العمومي فيوض بلاغته على هذا الاختراع الخطر، لكن المحامي الناشئ ظفر بالظروف المخففة لموكلته، بل إنه ليظفر من النائب العمومي نفسه بقوله في ختام مرافعته "يا حضرات المحلفين... إنني لم ألطب إلى الجلاد رأس امرأة إلا مرة واحدة في طول ما حييت لكن المحلفين رفضوا طلبي... ومع ذلك طابت نفسي.. فأترك لضمائركم تقدير الأمور".

ونجت جابريل من المشنقة بعشرين عامًا الأشغال الشاقة مع أنها هي التي وضعت بيدها حبل المشنقة في عنق المجني عليه! أما زميلها (ميشيل إيرو) فحكم عليه بالإعدام...!

وفي عام ١٨٩٨ ترافع عن الأطباء مرافعته الخالدة عن الدكتور "لابورت".

وفي سنة ١٩٠٢ ترافع عن المسيو "همبير" عضو مجلس الشيوخ ومدام "همبير" ضد الصيرفي المصري "قطاوي" وسنقرأ المرافعتين بعدُ.

وفي سنة ١٩٠٨ ترافع عن مدير الفندق "رينار" في مقتل التاجر "ريمي" فسلمت رأس المتهم.

وفي سنة ١٩١٣ انتخب نقيبًا لمحامي باريس فعمل لإطلاق سراح النقيب البلجيكي "تيودور" والنقيب الروماني "أنطونسكو" إذ قبض عليهما لأسباب سياسية في الحرب الكبرى الأولى.

وبعد أن انتهت الحرب ترافع عن المهندس "بيير" في مقتل "كاديو" سنة ١٩١٤ فظفر لمهندسه بالبراءة.

ثم ترافع عن الجنرال "ميشيل الذي سلم للألمان دون دفاع مدينة موبوج في أوائل الحرب الكبرى الأولى، فنال له في ساعتين ما عجز "لاشو" عن نيله للمارشال "بازان" عن موقفه في الحرب السبعين بعد مرافعة دامت أيامًا ثلاثة!

وفي عام ١٩٢٣ ترافع عن الحسناء البولونية "فالنتين أومنسكا" إذ قتلت أختها لتقيها برحاء المرض المزمن! فبرئت، وإن كان القضاء ما يزال يرفض هذا المبدأ إلى الآن.

وفي ١٥ من نوفمبر سنة ١٩٣٣ دخل "الأكاديمي" خلفًا "لربيو"

وفي ١٠ من يوليو سنة ١٩٢٤ أنعم عليه بنشان اللجيون دونير من درجة كوماندور.

وفي عام ١٩٢٥ ترافع عن "بوبوروش" أمام محكمة جنايات السين فبرأه المحلفون وسنتلوها بعدُ.

ثم ترافع عن القسيس "هيجي" في قضية "كولمار" أمام محكمة جنايات السين، وختم دفاعه الوطني الرائع بما ختم به عمله القضائي الخالد أمام تلك المحكمة هاتفًا... أيها الآب، صح معي؛ وبأعلى صوتك: فلتحيى فرنسا.

وبنى بينت له محام من نقابة باريس غدًا فيما بعد رئيسًا لوزارة الحرب في سنة ١٩٤٠ هو "بول رينو".

وكان آخر كلمة له في المجمع الفرنسي في فبراير سنة ١٩٣٦ في تأبين نصير الملكية العظيم "جاك بانفيل".

ويومئذ بدا للناظرين، شاحبًا، يعروه الهزال، كفيفًا، تنذر حالته بأنه سيرتحل الرحلة الأخيرة عن الدنيا.

وكأنما اتخذت النذر لنفسها موعدًا من ١٣ مايو سنة ١٩٣٦، لتحرم المحاماة والمجمع من النقيب الخالد، فجلس في كرسيه بالمجمع "شارل موارس" كاتب النظام الملكي ومحرر "الأكسيون فرانسيز" فحل محل الرجل الذي قضى حياته في الكلام والكتابة الرجل الذي قضى حياته في الكتابة لتغيير نظام الجمهورية إلى النظام لملكي!

انقطع "روبير" للتأليف منذ سنة ١٩٢٨ وأخذ عالم الأدباء يقرأ له بعد أن كان يقرأ عنه، وبعد أن كان محاميًا عن الأفراد، أصبح محاميًا عن المحاماة.. وبعد أن كان اسمه يذكر في المناسبات أخذ يدوى في المسامع باستمرار، بكتاباته في المحاماة، أو في التاريخ، أو بمحاضراته التي كانت تنشرها مجلة Confernecia أو في كتبه "قضايا التاريخ الكبرى" أو "المحامي" أو "محامي سنة ١٨٣٠" أو "ذكريات عن المحكمة والمدينة" أو كتابه عن "لويس السادس عشر" أو كتابه عن "مالزرب".

وكان طوال أيامه عزوفًا عن السياسة معتزًا بالمحاماة فلم يغب عن المحكمة بالانتقال إلى مجلس النواب أو مجلس الشيوخ محتذيًا حذو أستاذه "دريبه".

وكأنما كتب عن نفسه ما كتبه عن ذلك الأستاذ "كان في استطاعته أن يكون عضوًا في مجلس النواب أو في مجلس الشيوخ، لأن رجال السياسة جميعًا كانوا أصدقاء له، تطوق أعناقهم أياديه عليهم، وكان يستطيع أن يصير وزيرًا لكن الله رزقه الهداية فآثر المحاماة على ما عداها".

كان كنزًا حافلاً بالكفايات، والكفايات في أمة كفرنسا، وسط كالمحاماة لا يمكن أن تضيع.

* * *

فما هي تلك الكفايات التي رفعت صاحبها إلى الذروة؟

الجواب يتحصل في فكرة واحدة، هي أنه كان يفهم حقائق قضاياه كما كان يفهم عقلية القضاة.

وهذا هو الذي جعله بحق أحدث الأقدمين وأقدم المحدثين. وبعبارة واضحة هذا الذي جعله مترافعًا عظيمًا في أواخر قرن البخار، وفي أوائل قرن اللاسلكي، بل هو الذي يسر تبسيط المرافعات "التقليدية" التي كانت منابر لآيات البيان في أعقاب حرب السبعين إلى ما يستسيغه القضاة بعد الحروب العالمية في القرن العشرين... هؤلاء القضاء الذين يضعون الساعة أمام عيونهم، فإن لم يضعوها أمامهم، تصوروها مركبة في رءوسهم... تدق باستمرار..!

نحن الآن في المحكمة. وها هو ذا النائب العمومي يترافع "وذلك محام هادئ يكاد ينام، لكنه نهض الآن، بادي الرشاقة، رفيع القامة، قوي الصوت، واضح الكلام، ينطلق في سرعة غريبة كأنه يخشى فوات الميعاد! إنه يتكلم كأنه يتحدث، وها قد مضت بضع دقائق دون أن يظهر أنه محام عظيم، ولكنه قد أوغل في الصميم، وحميت الوقدة، واندلع لهيب النار، وانساقت الحجج متدافعة معجلة، فهو يضرب يمينًا، ويضرب شمالاً كلاعب السيف، ضربات منظمة، وأحيانًا كثيرة ضربات غير منتظمة، تسحر العيون... أو كما شبهوه بالحاوي، إذ يبهر المحلفين بصيحاته وحركاته وإشاراته، بينما هو يلتقط على أعينهم أعظم شيء في أيديهم، وهو هنا روح المتهم!

وفي عشرين دقيقة أو ثلاثين! يبدو للسامعين أن النائب العام أو غيره كان يسرف في تبديد وقتهم، بطويل مرافعاته، ضد رجل ما يزال طاهرًا كالطهر، مبرًا كالمسيح! ويملي التاريخ إملاءة يسيره ليسمع الناس كلمة القضاء.. بل كلمة القدر.

تلك كانت صورته وهو يترافع كما رسمها لنا سامعوه ومؤرخوه بل كما تتراءى لنا في كتاباته ومرافعاته. والأسلوب هو الرجل.

حدثنا "هنري روبير" عن رجل من أرباب القضايا دخل القاعة فبصر بمحام يترافع، فتساءل من الأستاذ..؟ وقيل له أنه الأستاذ "فلان" قال... كيف هذا! إنه يتحدث بمنتهى البساطة! لا يمكن أ، يكون هذا هو الأستاذ "فلان" البعيد الصيت..!!

فإذا رجعت إلى كتاب "المرافعة" [١١٨] رأيت الأستاذ المؤلف يدخل قاعة محكمة جنايات "ليون" فيتساءل عن محام يترافع ببساطة، ويلقى الجواب في دهشة وإعجاب، إنه الأستاذ "هنري روبير"!

وفي مقال معنون "فتحت الجلسة" بعث به إلى مجلة Candide فقرأه الأحياء في ٢١ من مايو ١٩٣٦ بعد أن كان قد رفع من سجل الأحياء. محض "هنري روبير" المحامين النصح أن يقرءوا مرافعات "والدك روسو" ليتعلموا "فن البساطة والسهولة والدقة" وفي كتاب "المحامي" يهيب بالمحامي أن يذكر أنه يقف أمام القضاء "ليقنع لا ليلمع" وأن القرن السادس عشر قد حمل إلينا رسالة من أجيال الفصاحة القضائية الأولى هي أن "تترافع باختصار ولباقة وإخلاص".

من أجل ذلك نجد مؤلفاته كمرافعاته، يبدؤها ليخلص منها بسرعة وفي حرارة، وأنت تبدأ قراءة كتبه فلا تستطيع أن تدع الكتاب حتى تصل إلى خاتمته، لا حواشي، ولا انفجارات، ولا إطناب ولا محسنات، وإنما أحكام سريعة شاملة على الأشياء والأشخاص.

هذا كتاب (قضايا التاريخ الكبرى) في عشرة أجزاء، يعرض للناس أروع ما اجترحه الضمير الإنساني من أوزار وحيل وخبائث، وهذه مرافعته الطيبة عن الأطباء تروعك بسهولتها، وقوة دلالتها، حتى لكأنها دروس تلقى على التلاميذ وستقرؤها فيما بعد.

ذلك بأنه كما أسلفنا كان يفهم قضاياه فيعرضها من حيث يجب أن تعرض، وما دام يفهمها فهو قمين بأن يُفهمها.

والذي لا يفهم لا يستطيع أن يفهم، وتبسيط الأشياء أصعب من تعقيدها، والغموض في التعبير هو في غالب الأمر أثر الغموض في التفكير.

يبسط الواقعة والتعليق معًا ولا يفصل بينهما، ففي المحاماة أسلوبان: الأول يسرد الوقائع ثم يناقشها حتى لا يباغت ضمائر القضاة بجدل يجمل تأخيره وحتى تحتل الحوادث مكانها من الأذهان، والثاني: أسلوب الأسانيد في محكمة الجنايات، لا يضيعون الوقت في السرد، ثم العودة إلى ما سبق من سرد، وهو في الواقع أسلوب الخطيب الذي لا يريد أن يترك الواقعة إلا بعد أن يصبغها بصبغته، فلا يدع للسامع فترة، يعمل فيها فكره، بل يضطره إلى التفكير في الواقعة والرأي في وقت معًا.

---

(١١٨) الأستاذ حسن الجداوي.

امتاز "هنري روبير" من رجال الدفاع بالسرعة المتناهية في الإلقاء، وله من جراء السرعة واقعة مشهورة في صدر شبابه.

كان يترافع عن قاتل عشيقته "شامبيج" فقال وهو يطير في أجواء الكلام "... فعقد العزم على أن يقتل نفسه ثم يقتلها.." ولم يفطن أحد إلى ما في الكلام من استحالة، لأن الجمهور والمحلفين كانوا يسبحون على يديه كالزورق الذي يحمله التيار.

ولذلك الإسراع تجده ينتزع متهمًا بقتل أبيه من براثن النائب العمومي بعد ١٧ دقيقة كما شهدت الأستاذة "أوديت سيمون" بل كما شهدت أيضًا.. ينتزع المتهمة بالقتل في بضع دقائق (!) في قضية أومنسكا!!

بل إنه ليبرئ المتهم بعد ٢٠ دقيقة لا أكثر ولا أقل، كما تعهد للمحلفين في مستهل دفاعه عن "بوبوروش" إذ قتل الرجل الذي نبأه إن خليلته تخونه، وسنتلوها فيما بعد.

وفي سنة ١٩١٣ كتب الأستاذ "فرنان يابان" قبل أن يصبح نقيبًا، ومؤرخًا لأستاذه "بوانكاريه"، بل قبل أن يصنع نفسه في التاريخ فيصبح محاميًا عن "بيتان" [١١٩] سنة ١٩٤٥ فعلل سرعة "هنري روبير" بأنه يخشى أن يضيع أثر كلامه في المحلفين فينتهي بسرعة ليتركهم تحت أثقال براهينه.

وفي الحق لقد مهد له ذلك صفاء عقله وقدرته على الارتجال، ذلك الارتجال الذي قال عنه إنه نتيجة ترديد الكلام قبل المرافعة حتى ليسمى نفسه "آلة كلام".

يبدأ المعركة بأفكار واضحة، وعبارات سهلة، لينتهي منها بأسرع ما يستطيع – والنصر الرائع هو غالبًا النصر السريع – مشدود الوثاق، ما استطاع، بموضوعه، لا يرسم الصور ولا يلقي الحكم، ولا يتفيهق بالألفاظ، ولا يتطلب الشهرة، لأنها دانت له من زمان يلقي الحجج واحدة بعد أخرى؛ كالفيلق في آثار الفيلق، وكالانتصار في أعقاب الانتصار. ويستغني عن أربعين دليلاً بأدلة أربعة، لها قوة أربعمائة ووضوح واحد... مع القصد في التفاصيل والسخاء على الدلائل، يعرضها كل عرض، ويصلى التهمة نارًا بعد نار، حتى إذا أوفى على التمام قذف بما يشبه المدفعية الثقيلة تمحو كل أثر، إن كان قد بقى أثر.

---

(١١٩) رئيس جمهورية فرنسا في الحرب العالمية الثانية.

فلنستمع إليه في نهاية قضية الأطباء يقول ما نجمعه في كلمات: إنما هي صيحة تحذير للهيئة الطبية قاطبة... فإذا كان الطبيب منهم يقاد إلى المحكمة ليحبس ويلوث، لأنه واجه حالة خطيرة فأجرى عملية لم تنجح، فالخير له كل الخير، أن يمتنع، ويدع المريض يموت ذلك الموت الجميل... ذلك نظام وقوف الأطباء مكتوفي الأذرع أمام الألم. نظام "دعه يمت"... حذار أن يسيطر عليه هذا التأثر المؤلم في ساعة تستوجب أن تتوافر عنده حرية نفسه في كمالها، واتزانه في تمامه، فيتذكر الطبيب أن شرفه كله، وسمعته كلها في الميزان.. إن العدالة نفسها، بذلك البطش الذي ليس من سمات العصر، ستتكافل في أن يزيغ بصره وترتعد يداه...

* * *

كان يشرح ارتجاله بقوله "أنا لا أفكر في الكلام حين ألقيه" ويقول "أنا لا أحضر مرافعات مكتوبة، وإنما أترافع بيني وبين نفسي على انفراد وبغير صوت، لا أتكلم، وإنما تجري العبارات في مخيلتي إذ أمشي، أو حين أكون في عربتي، وفي المساء تتوارد لدي خواطر ذات بال" وهي عبارة تشرح للقارئ حالة كان يشهدها سامعوه عندما تُفتتح الجلسة فتبدو عليه علامات الانفعال.

ذلك بأنه، إلى جوار هذا النشاط الذهني والكلامي الذي يعترك في كيانه، يحمل تبعات ينوء بها أقوياء الرجال.

وكلما جل قدر المحامي فدحت مسئوليته. والقضايا ليست إلا مخاطرات! فمن ذا الذي يستطيع أن يتأكد من مصائر المخاصمات، أو يتحكم في طرائق التفكير والتقدير.

القضايا معارك كمعارك السلاح، وما أحكم القائد الذي يتفادى المعركة ويصل إلى هدفه والذي يقدرها قدرها قبل أن يخوض غمارها، إلى غاياته.

وقديمًا كان "تورين" يرتجف إذا دخل المعركة فيعنف جسمه بقوله "ارتعدي أيتها الجنة. إنك لا تدرين أين أقذف بك".

وكان "تورين" قائد لويس الرابع عشر أعظم القواد في تاريخ فرنسا قبل "نابليون".

وكان أخطب الخطباء "ميرابو" يستهل خطبته كما حدثنا "باربو" فيبدو عليه الضيق والإرهاق والتردد أمام الكلمات، كأنما يعالج حملاً ثقيلاً ينقض الظهور.

وكان الهم يعتري "لابوري" ليلة الجلسة، وقبل المرافعة، من كثرة ما حضر وقدر، والارتجال دون درس؛ مجازفة بحقوق الناس واستخفاف بالقضاة. أما ارتجال الألفاظ فشيء آخر.

لا يرتجل الكلام العظيم إلا من حضَر مرافعته مرات ومرات، ومرن على مواجهة الأحداث ومجابهة الفجاءة، فدانت له أعنة البلاغة.. وهو لا يرتجل كما يتوهم الواهمون، وإنما يستخرج ما في مواهبه من كنوز ظاهرة أو غائرة تظهرها الحاجة، فهذان تحضيران: مباشر وغير مباشر.

ولعل هذا الدرس السابق لدعوى، والجهد القديم للتفقة، هو الذي عناه النقيب "شارل شنى" في محاضرته لفتيات الجامعية في سنة ١٩١١، إذ حدثهن عن خطواته الأولى بقوله:... وكلنا جميعًا نشارك بنصيب ضخم في تلك الأكذوبة البريئة التي لم ينخدع بها أحد قط... وهي أننا نرتجل عفو البديهة كلامًا سهرنا في تحضيره آناء الليل وأطراف النهار...!!

بل هو الذي عناه إميل أوليفيه رئيس وزراء فرنسا في القرن الماضي حينما قال عن زعماء الارتجال "إني لم أشهد في حياتي إلا ثلاثة رجال، هم زعماء الارتجال "تيير" رئيس الوزارة و "برييه" عميد المحامين وأنا... ولكن الحقيقة أننا لا نرتجل مطلقًا".

بلى.. وهو الذي عناه "برييه" في قوله لإحدى صديقاته "تتحدثين عن الارتجال؟ أتعرفين السر الحقيقي للمرتجلين؟ إنهم لا يرتجلون أبدًا"!

وفي أواخر القرن الماضي أشار محام – كان عضوًا في مجلس النواب – إلى أن القضاة سيسمعون من "باربو" مرافعة أصلها مكتوب فصرخ في وجهه "باربو": إن احترامي لهذه الساحة يضطرني إلى تحضير ما أقول، لكن الذين لا يحضرون كلامهم ويملئونه بالتناقض يلقون صدورًا رحبة في ساحة أخرى...

وكانت الساحة الأخرى كما أراد "باربو" مجلس النواب!!

بل إن جوريس الخطيب الاشتراكي وزعيم مجلس النواب، هو الذي يقول "إن احترامي لسامعي يضطرني لتحضير خطبي...".

وإذا لم تكن المحكمة ساحة للخطباء فإنها أعظم ساح البلاغة خطرًا في العصور الحديثة، ليست البلاغة فيها للفن وحده، أو للجدل وحده، ولا للكسب فحسب، ولكنها لمزاج موفق يدخل في تأليفه هذا كله وكثير غيره.

ولذلك قالوا إن المحامي ممثل، وإنه غير مستقل، لأنه وكيل يقيده الموكل.

هو سفير ومعبر، ولا يستطيع أن يسفر أو يعبر إلا مرتجلاً، فالارتجال هو الذي ينقل الأثر لسامعيه، مستجيبًا لتأثيرهم فيه. والمحامي يخلق في حركاته، وسكناته، خلقًا من فكره وفمه. ولن يعيش هذا الخلق إلا إذا استمد الحياة من البيئة التي ولد فيها.

وقديمًا قال "أرسطو": إن غرض الخطيب منذ يشرع في خطبته أن يظفر بالقبول في عقول سامعيه وأن ينسج عروة من التعاطف بين المتحدث والسامع، فإن السامعين لا تنفتح عقولهم للاستنارة أو للمتابعة إن لم تجمعهم هذه العروة بالمتكلم.

إنما السر في تأثير الارتجال وسحره أنه تصوير لآخر أثر للطبيعة في أنفس الناس، فتقدم الحجة في الوقت الذي تعمل فيه عملها كاملاً، كالهجمات يقوم بها الجيش في أوانها وفي مكانها.

ولا بأس على التحضير إذا كانت المرافعة المحضرة، في خدمة المترافع، ولم يك هو عبدًا لها فالمرافعة المحضرة كما قال أحد الفلاسفة عن النقود "خادم نافع وسيد ضار".

إنما يلقى مرثيته ذلك الذي يتلو مرافعة مكتوبة! كأنما يتحدث من بعيد فلا يطابق الحال... والبلاغة مطابقة الحال.

روى "أوديير" أن محاميًا بارزًا في أعقاب الحرب العالمية الأولى قصد إلى الجلسة ليترافع في قضية خاسرة، وإذ به يشهد في القاعة محاميًا ميزته في الحرب جلائل أعماله، فما كاد يشرع في مرافعته حتى عطف عليه بغمره بتحايا، ثم انفتل إلى مصاعب الحرب، ومتاعب البشر، وعاد إلى مفاخر الزميل يمجدها.. وتحسن جو الجلسة.. وكأنما صفت السماء.. وأرهفت الآذان لسماعه، وفاضت أنهار البلاغة.. وبرئ المتهم.

سألت إحدى المجلات جماعة من العظماء منهم "دومرج" – رئيس الجمهورية الفرنسية – و "بربان" رئيس الوزارة و "هنري روبير" عن أروع الأوقات التي صادفوها في حياتهم فقال "روبير" "... إذا كان المقصود بأروع الأوقات أكثرها تأثيرًا فقد عرفت منها ثلاثة.. الأول عندما أقسمت اليمين. والثاني حين انتخبت نقيبًا. والثالث يوم استقبلتني "الأكاديمي".. ولا أستطيع أن أبين أروع لحظة في حياتي العملية لأن الوقت الذي يقضيه المحامي في الدفاع من أروع الأوقات، وتستعمل فيه كل فصاحتك وبلاغتك ومقدرتك لإنقاذ رأس سجين. وتخلق له جميع

الظروف المخففة التي لا تحلم بها نفسه، لتقنع القضاة وتسيل دموعهم وتثير في نفوسهم الرحمة والإشفاق والصفح.

وأنى لك التوفيق إلى ذلك إن لم تضع نفسك في إهاب المتهم! لقد يكون المحامي ممثلاً. لكنه مترجم يجب أن يتوافر فيه الإخلاص في الترجمة، فإذا لم يكن مع المتهم بفكره وقلبه، فكيف يستطيع أن يدافع عنه".

فإذا شرع في مرافعته أدار فكره في شتى الجهات يبحث عن متهم غير المتهم ليلقي عليه أفدح أثقال الاتهام، كالمجني عليه أو، كالشاهد...!

وإذا لم يكن ثمة مجرم آخر فلقد يجد زوجًا لم ينفق خمسة فرنكات لإنقاذ روح زوجته، أو قومًا تسببوا في إحداث الوفاة!! أو تحريضًا أو استفزازًا أو استسلامًا، أو مرضًا كانت فيه خاتمة الحياة، أو تقصيرًا من الهيئة الاجتماعية ممثلة في شتى الهيئات والمصالح، إلى غير ذلك من أساليب الدفاع وإن شئت فمن أساليب الاتهام.

فإذا قضى المحلفون له لم يقضوا لموكليه، وإنما قضوا ضد خصومهم!

وهكذا نقل إلى المحكمة تلك الخطة التي اختطها في الملحمة، الرجل الذي كسب ستين معركة "نابليون" أو "نقلها" عن "هانيبال" للأجيال وهي أن "الهجوم خير وسيلة للدفاع" إذا علم بقيام حلف ضده في وسط القارة أو في شرقيها أو في غربيها لا يلبث في غرفات "النوبلري" بل تلقاه أوروبا مرتين تحت أسوار "فيينا" ومرة أخرى في قصر "فردريك" العظيم في "برلين" ليصحب ساعته الدقاقة إلى باريس ثم إلى "سنت هيلين" ومرة رابعة تجده في موسكو... أمام الحريق.. بل أمام باب اللانهاية.

ولكن ما الذي يقوله "هنري روبير" في تلك القضايا التي سلخ المحقق فيها عامًا كاملاً. والتي سودت فيها آلاف الصحف؟

للجواب عن ذلك نقول إن "هنري روبير" كان كأنما أقسم أن يترافع في القضية ولا شيء غير القضية!

كان يجيد عدم الكلام قدر ما يجيد الكلام... يعمد من فوره إلى المسألة التي تحكم القضية، فيظهرها على طريقته في قوة وسرعة وإيجاز، مدركًا أن الخير للمحامي ليس عرض كل ما في الإضبارة، بل الفن الحقيقي إهمال ما يجب إهماله منها.

وقديمًا علمنا أساتذتنا أن فن الحذف يساوي تمامًا فن الكلام. والتطويل يفعم الأنفس سآمة، ويدفعا الأعين إلى الغمض، والأفئدة إلى الاستنامة.

لقد باهى الرئيس... "أوديبير" بأن كل فخاره أنه لم يكن القاضي الذي ينام في أثناء المرافعات..! وقال "إن القاضي لا ينام إذا كانت المرافعة موجزة واضحة فيها حياة...".

وبينما يلوم (لك الرئيس الذي قطع على المحامي مرافعته بقوله: انتهت المرافعة... ٥٠ فرنكًا غرامة فلما احتج المحامي قال الرئيس: أنت تعارض! فلتكن ١٠٠!! بينما يزري بهذه المقاطعات، يفخر بأنه كان إذا رزئ بمرافعة طويلة لا يقاطع المحامي وإنما يلجأ إلى الدسائس!! فيتجه إلى المحامين الآخرين، القاعدين في انتظار قضاياهم، ويتحدث إليهم في أدب جم: إنني أشير عليكم بتأجيل قضاياكم أسبوعين، لأن المرافعة في القضية الحالية ستطول.. فيحتج الزملاء على تطويل الزميل. ليترافعوا في قضاياهم..! وبهذه الوقيعة، يختصر المحامي وينجو رئيس المحكمة بنفسه.

* * *

كان "روبير" يقول إنه درس "لاشو" دراسة عميقة، لكنك لا تجد فيه مشابه من أستاذه.. أستاذ القرن الماضي..

فمرافعات "روبير" كانت مرافعات موضوعية مجردة، لا تتخللها الجلجلة، ولا الصوت المدوي، ولا الصور التاريخية، ولا العبارات البيانية الخلابة التي يتبارى فيها "لاشو" مع شاعر القرن الماضي "فيكتور هيجو".

إنما خلف لاشو من بعده "باربو" نابغة الفن التقليدي في الدفاع، و"لابوري" المهيب الذي يلمع بقدر ما يقنع.

أما "روبير" فلم تكن تهمه رسوم الخيال المشرقة ولا طلاوة اللفظ لا طلاقة الأسلوب، ولا تفخيم المعاني، فإذا وردت صورة من الصور أو حكمة من الحكم في معرض الدفاع ألفيتها منتزعة من صميم الواقع لا من آفاق الخيال. مقتطعة من جوهر اللباب، لا بهرجًا يستثار به الإعجاب.

كانت روائع "لاشو" طرزًا أدبية تضاهي مزاج العصر، ووقفات تمثيلية تخلب البصر، يقول للمحلفين وهو يترافع في سنة ١٨٥٥ عن "ردولف" المتهم بدس السم لعشيقته "ميمي" "هاإن السماء تدوي وكأنها تكاد تنقض، إنكم تسمعون عصف العاصفة وهزيم الرعد... إن السماء تزمجر سخطًا على ما في الأرض من إعنات... إنها تحتج معي على تلكم الإجراءات!!!" أو يقول تلك العبارات العظيمة التي أوحت بها إليه دقات الساعة ليلة الميلاد، فأنقذت رأس المتهم، أو تلك الكلمة التاريخية التي سددها إلى صدور القضاة قبل أن يسددها إلى أسماعهم في مرافعته ضد الجنرال "تروشي" بعد حرب السبعين، وكان "تروشي" قد تهاون في قضية الإمبراطور، قبل أن يخلع:

إنكم ستحكمون في قضية الجنرال "تروشي" ولكن التاريخ سيصدر حكمه على حكمكم.. سيقرأ التاريخ ما دار في هذه الجلسات فحذار أن تضحوا كل شيء مرة واحدة.. فيقول بنو الأجيال المقبلة إن كل شيء في هذه الأمة قد ضاع – حتى العدالة نفسها.

لم يكن "روبير" ينحو ذكل النحو البلاغي في الدفاع لأن الدنيا تغيرت، والمحاكم تطورت، وضاقت صدور القضاة كأنما ضاقت بها رحاب الوجود، وكأنما تريد أن تصل بالدنيا إلى آخر الدنيا..

وبعد أن كان لدى المحامي من الوقت ما يأذن له بأن يترافع ما شاء، ساعات أو أيامًا، أصبحنا نجد محاميًا – كما روى "هنري روبير" – يسأله الرئيس قبل المرافعة عما يكفيه من وقت فيقول: ستشغلني المقدمة ربع ساعة، واستعراض الوقائع نصف ساعة، والمناقشة ثلاث أرباع الساعة أما الخاتمة فخمس دقائق، فيرد الرئيس بقوله: "اقتصر على الوقت المخصص للخاتمة... تفضل...!".

إنما تلاميد "لاشو" ولداته هم أولئك الذين يقولون مثل الذي قال "باربو" في قضية شركة "قناة بناما" عن "دلسبس" وهو يرأس المؤتمر الذي قرر شق قناة العالم الجديد (قناة بناما) على غرر القناة التي شق بها صدر مصر في العالم القديم، فأعاد إلى الأذهان صورة "كرستوف كولمب" وهو يحتفظ حتى قبره بالحديد الذي قيده به ملوك وهب لهم عالمًا جديدًا... وأعاد ذكرى مؤتمر "الصليبيين" إذ أعلنوا الحرب الصليبية ثم قال: "أما في ذلك المؤتمر فلم يتقرر استرداد قبر المسيح من أيدي الكفار، ولكن عمل المؤتمرين لم يكن أقل خطرًا! كانوا يطمحون إلى أن يغيروا تجارة العالم وأن يصلوا شعوبًا بينها ثلاثة آلاف ميل، وأن يعدلوا غشاء الكوكب الأرضي، فيضيفوا بعض "الرتوش" إلى وجه البسيطة كما أبدعته يد الخالق!!".

أو كما قال عن "١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩" يوم عظيم في تاريخ فردنان دلسبس كانت تخفق فيه أعلام الدول على ثلاثين باخرة حاملة ثلاثة عواهل.. تمر على أعتاب سرابيوم لتلقي مراسيها في خليج السويس بين صيحات الحماية ترددها كل أرجاء العالم المعمور... ثم عاد إلى أوروبا بعد أن فتح أرض الله لعباده..".

وفي نهاية مرافعته يقول بين تصفيق الحضور "إنك يا حضرة الأفوكاتو العمومي تنعي على "دلسبس" أنه ملأ نفسه بالخيال!! الحملة الصليبية عندك كانت خيالاً، والحملة المصرية (حملة نابليون على مصر) عندك كانت خيالاً، لأنك تسمى المخاطرات العظمى التي لا تنجح خيالاً، إن الإنسانية لا تستطيع أن تعيش بغير الخيال...".

أو مثل "فيكتور هوجو" وهو يترافع عن ولده "شارل" ضد عقوبة الإعدام فيقول: "... إنني الذي نشأته في الثورة على عقوبة الإعدام، فإن شئتم متهمًا فأنا وحدي الجدير بالاتهام..." ثم يقول: "هذه العقوبة التي إذا وقعت على مجرم جعلته يشك في وجود الإنسانية، فإذا وقعت عرى برئ جعلته يشك في وجود الله!...".

أو مثل "فيكتور هوجو" أيضًا وهو يترافع في هذه القضية وإذا شئت فقل مثل النمر – الأب النصر كما سموه بعد الحرب الكبرى الأولى – أعني "كلمنصو" عندما ترافع عن "إميل زولا" عقب "لابوري" فنقل عن "هيجو" تلك الإشارة البديعة إلى تمثال المسيح، وكان حتى ذلك الحين يوضع في قاعات الجلسات خلف هيئة المحكمة ثم قال "... انظروا وراءكم، فهذه أكثر ضحية عرفها التاريخ لأخطار القضاة...!!".

وكانت قضية "إميل زولا" تدور حول تخطئة حكم سابق في قضية "دريفوس"..

بل مثل الهلباوي في قضية "نزاهة الحكم" في تلك الوثبة الذهنية البارعة، بتلك الآية السماوية الرائعة، عندما رد حفني باشا محمود رئيس محكمة جنايات مصر فرفض الرد، وراح الخصوم، يوقعون بين الرئيس والمتهم، فتحداهم الهلباوي بالموازنة الهائلة بين المتهم وموسى عليه السلام وبين الرئيس وخالق الرئيس..

لا تجلد لتلك التصويرات وأشباهها مشابه عند "هنري روبير" لكنك تجد خواطر ممتعة، هي في حقيقتها حجج مقنعة في صميم القضية المطروحة.

المترافع العظيم في العصر الحديث يستفتح مرافعته بصميم الموضوع وصميم الحجج. حتى إذا انتهى من الصميم انتهت مرافعته. أما ما عدا ذلك من الزينة التي تزدان بها المرافعة، فلا ينبغي أن تكون زيادة تزداد من جرائها المرافعة، وبقدر ما يبدو من الأصالة في المزيج بين الصميم وبين الزخرف، وبقدر ما يسلم من التعمل والاصطناع، ينجح المترافع المصري في مرافعته...

سنرى من بعد أمثالاً لمرافعات "روبير" فنرى الحجة في الدقائق الأولى، ونراه ينتهي من مرافعاته إذ تنتهي أدلته، وترى التصويرات البارعة، تستحيل حججًا قاطعة. فلنستمع إليه. يفتح عيون القضاء على الأطباء.

"افتحوا أعينكم على قاعات الدفتريا حيث الأطباء الداخليون والخارجيون عاكفون على أعمالهم، ينتثر الموت من حولهم في الشهقات والزفرات، ليس منهم من تردد أو ارتعد.. ارجعوا إلى إحصاءات الحمى الفصراء والدفتريا والكوليرا، وأحصوا عدد الأطباء الذين سقطوا صرعى في ساحات الشرف ضحايا واجبهم وتساءلوا بينكم: أهذه هي الطائفة التي تحلمون بإبادتها...! هؤلاء البنون البررة للعلم، الذين يصارعون الموت في كل مكان، فيصرعونه تارة، وتارة يصرعهم. لكنهم يستحقون الإعجاب على كل حال!!

حذار ثم حذار! أيها الذين تتهمون الطبيب عند قيامه بواجبات صناعته دون أن يكون لديكم الصفة أو العلم.. حذار أن تتهموا أنتم أيضًا بعدم التبصر والإدعاء. إنكم ستلجئون إلى مستشاريكم العاديين، وهم الأطباء الخبراء، فستكونون تحت رحمتهم، وسيكونون وحدهم هم الذين يصدرون أحكامكم.

وإذا تأثرت العدالة بذلك فإن ضحاياها الحقيقيين سيكونون هؤلاء الذين يراد منكم أن تحموهم وهم المرضى...".

أو قوله في ختام مرافعته عن بوبوروش "... إنني أرجو أن تبرئوا بوبوروش حتى إذا أويتم إلى مساكنكم في هذا المساء استطعتم وأنتم تطعمون عشاءكم أن تلقوا على زوجاتكم وبناتكم نظرات تتراءى فيها راحة الضمير...".

بل قوله في نهاية قضية الينكير المصري (قطاوي) بعد ما تحدث عن استعمال محامي الخصم لنفوذه كوزير لدى قاضي التحقيق "وستثبتون ببراءة مدام همبير أنكم تصدرون أحكامًا ولا تؤدون خدمات...".

فإذا واجهته حواجز القانون ولى وجهة شطر المحلفين فسخر من حواجز القانون في لفتات باهرة، يبدو لك مثل حيث يتداول بين أنامله مبدأ "عدم قبول المدعى المدني في قضايا الربا الفاحش" وقد استقر عليه قضاء المحكمة العليا، فيجبه خصمه برشاقة وقوة تستفزان لنصرتهما دواعي الذوق والعدالة، في المحلفين خاصة، كما سنرى في قضية مسيو ومدام "همبير" وفي قضية "لابورت" حيث يواجه مسئولية الأطباء فيفيض في إجلال الأطباء ويتحدى الخائفين من الموت بالعاملين على الحياة.

وكانت وثبات بديهته حديث الجميع، كرده على النقيب "دريبه" وقد أسلفناه أو ما رواه "جولندن" في أكبر قضايا سنة ١٩٣٢:

وقف "توريز" أمام محكمة استئناف الجنح سنة ١٩٣٢ يترافع عن (فرمون) في تهمة نصب. وكان هنري روبير يدافع عن "تاكوشيما" المجني عليه. وكانت نظرية "توريز" أن "تاكوشيما" نصب على "فرمون" فأصلح "فرمون" ما أفسده عليه "تاكوشيما". واختتم دفاعه بكلمة مسرحية قال: لقد كانت رواية!... أما الفصل الأول "فتاكوشيما" يضرب "فرمون" والفصل الثاني "فرمون" يضرب "تاكوشيما" وفيما هو يسترسل نادي "هنري روبير" بالنهاية قائلاً: الفصل الثالث: "المحكمة تضرب فرمون".

* * *

كان "هنري روبير" يوصي المحامين بالتمرس وبالتدريب، بأن يكتبوا دائمًا ويقرءوا دائمًا. ليتعلموا حسن الأداء فالمحاماة في جملتها حسن أداء، والتمرين العملي مدرسة المحاماة.

إن كرسي مجلس النواب لم يمنع "بوانكاريه" من أن يظل مساعدًا للنقيب "دي بودي" فلم يستقل بمكتب إلا بعد أن صار وزيرًا للمعارف، وبعد سبع سنين في مكتب أستاذه.

وكان "روبير" يقول مقالة الأقدمين إن سر النجاح هو: العمل. وثانيًا: العمل. وثالثًا: العمل".

ولقد يكون المحامي موهوبًا، كله كفايات، فإذا لم يجدد نفسه ويزودها بالمعارف، نضب معينه، وغاض ماؤه".

قضى النقيبان "شنى" و "باربو" نحو العشرين عامًا في زاوية المحاماة لا يتسرب إليها النور، فتزودا في أثنائها يزادهما من التاريخ والآداب والعلوم، حتى إذا انقضى ثلث قرن كان "باربو" يفتح كراساته ليستخرج منها شواهد هي آية الآيات في المحاماة، بل في الأدب الكلاسيك.

وكان الحياء يكاد يقتل "والدك روسو" فلم يكف عن القراءة والكتابة والتمرين حتى صار فخارًا للمحاماة ورياسة الوزارة.

ولقد فطر "باربو" فطرة هندسية أو حسابية، وخلق ضامرًا نحيلاً، في حين يحتاج الخطيب إلى روعة المنظر وفخامة المظهر، وكان في صوته خشونة وجفاف، في حين يحتاج المتحدث إلى صوت ينفذ إلى الآذان دون استئذان، لكنه حوّل فطرته الرياضية إلى عقلية "رجل القانون" وجمّل جهازه العصبي بالصبر، وأصلح من صوته وجرسه حتى بلغ غاية الدقة والوضوح وانكب على المعرفة يعب منها عبًا حتى إذا واتته الفرصة لم تجد رجلاً غمرًا، أو محاميًا غرًا،

وإنما استقبلها محام كما قال "لابروبير". "جدير بالمهام العظمى"... قال في تأبينه "النقيب بيسون بيو" سنة ١٩١٠: "إن قليلين من المحامين قد رفعوا شأننا مثلما رفع".

لكن هنري روبير، عرف الشهرة في صدر شبابه فلم يكن ينعم – أو يشقى – بما سماه "الفراغ الإجباري للمحامين". ومع ذلك كان يجبر الزمان وصحته على ان يمنحاه الفراغ والعلم، حتى ليكف بصره في أخريات حياته.

وإذا رجعت إلى مؤلفاته وبخاصة "قضايا التاريخ الكبرى"، تلك القضايا التي تناهز الخمسين عددًا والقضية منها قضية دنيا كاملة. لا تقل مراجعها عن الآلاف من الصفحات – إذن لرأيت كيف بدأ بنفسه في العمل بهذه النصيحة.

لقد كادت يده تسطر في هذا المؤلف تاريخًا كاملاً لروائع المجد الفرنسي، ولبعض المجد الإنجليزي. من دفاع "فولتير" عن "كالا" وقضايا "سان مارس" و "كامبل ديمولان" و "ماري ستيورات" وطلاق "جوزفين" من نابليون و "لويس الثامن عشر" و "ماري لويز" وموت "نابليون"، و "قضايا السم" و "هنري الثامن" و "كارتوش"، والمارشال "ناي" و "الوصاية" على عرش فرنسا" و "كونديه" والملك "مورا" وفضيحتي "بناما" و "النياشين" و "ماري أنطوانيت" و "عقدها" و "لاشو" و "مدام لافارج" إلخ إلخ...

فلما قدم للجزء الأول منها زميله في المحاماة وفي المجمع رئيس الوزراء "الرئيس بارتو" اعتذر وهو يقدم "اسمًا هو أكبر الأسماء رنينًا في الاستماع، يتألف من لفظين يثيران في الأذهان ذكريات القضايا الخطيرة والمرافعات الكبيرة، وعهد نقابة جليل، وكفايات عظمى وقلب من الذهب..."!

وقال عما عرض له من القضايا: "لقد ألقيت على كل ذلك نورًا يبعث فيه الحياة ويجعله حاضرًا بين ظهرانينا حبيبًا إلى أفئدتنا.. كانت حياتك تجربة طويلة للطبيعة الإنسانية.. ولما أصدر "لامارتين" كتاب "الجيروندديين" قال له "ديماس" الكبير قالته الكبرى، إذ هنأه، إنه "ارتفع بالتاريخ إلى مستوى القصص" – لكنك لم تخلط بين التاريخ والقصص... لقد كان كلامك القوي، المعجل، المحدد معبرًا عن شعور حر من المؤثرات بحكم منزهًا عن الغايات.. والتاريخ كما فهمته هو البعث من جديد مع الموعظة..."

وقال: "... لقد أطربني كتابك فإليك تهنئني ككاتب – وإني لأنقصك قدرك كخطيب، إذا قلت إننا لم نخسر شيئًا بعدم استماعك. فالكلام عمل لا تجزئ عنه القراءة لكن كلامك مهما

قيدته الكلمات يحتفظ بالحياة، وبالنبرات، والقوة، والحركة، الملأى بالمتعة وبالحيوية التي لا تقاوم..".

في هذه لكلمات الجامعة تلخيص شامل لفن "هنري روبير" في الكتابة أو في المرافعة.

وبهذه المؤلفات علم النقيب العظيم المحامين بالقدوة ما علمهم بالقلم، أن المحاماة كفاح دائم في سبيل المعرفة كما أنها كفاح في سبيل العدالة.

* * *

لقد ترامت حدود المعارف القضائية إلى أبعد مما يبلغه الفكر العادي، وأضحى لزامًا لنجاح المحاماة. ما يلزم المبرزين للنجاح في الحياة، من التزود بزاد عظيم من العلم، بالعمل اليومي المرهق المتصل.

ولئن قيل إن المحامي يشبه الممثل، إن تبعات المحامي لأجل. فالممثل يحفظ دوره عن ظهر قلب، ليتلوه على متفرجين جاءوا ليستمعوا، أما رجل الدفاع فيواجه خصومًا وقضاة أشربوا في قلوبهم الشك، تسّاقط عليه الفجاءات من منصتهم، لا يروعهم الاصطناع ولا الإبداع، وإنما يخضعون للإقناع، بالعلم. والدليل الناهض.

لقد أوشك "مارشال هول" أن ينتزع رأس بنت، وسدون، من المشنقة كما انتزع رأس لورنس وغيره لمعلوماته في المجوهرات والسموم والسلاح.

وكان إلمام "هنري روبير" بقضايا التاريخ وبأبطال المحاماة ثروة ذهنية حافلة يسرف في إنفاقها بالكتابة والخطابة والمحاضرة والمرافعة.

قال "بيكون": "القراءة تملأ الإنسان، والكتابة تعلمه الدقة، أما الكلام فيجعله مستعدًا". وقال "فنلون": "الخطبة العمومية لا تحضر في ثلاثة شهور، بل يجب أن يكون لدى الخطيب محصول زاخر حصله من سنتين".

انتهى عهد المحامي الذي يبكي القضاة، وانتهى عهد القاضي الذي يغرق العدل في غمار الفصاحة، كما ضل "هنري الرابع" في مجلس القضاء حين راعته فصاحة المحاميين، عن الخصمين، فقال لكل منهما بعد أن ترافع: الحق معك.

وانتهى عهد هؤلاء القضاة الذين برؤا Phyrne عندما عرضها المدافع عنها.. عارية.. لعيونهم...!

انتهى ذلك العهد مذ سن اليونان قانونًا يحول دون حضور المتهم بنفسه أو أقاربه في الجلسة.. أما في عهدنا الحاضر فلم يعد أحد بحاجة إلى قانون.

وانتهى ذلك العهد في مصر من قبل أن يبدأ ذلك العهد في اليونان، عندما اخترع المصريون الكتابة فأبطلوا المرافعات الكلامية مخافة أن يؤثر حسن صوت المترافع في أذان سامعيه..

ولئن كانت البلاغة وما تزال عدة المحامين النوابع، إن المحاماة قد لا تعرف النحو. ولكن إذا سمت لغة المترافع البارع وضع نفسه في التاريخ، حيث تضع البلاغة خطباء التاريخ.. في ذروة المجد.

والتمثيل الرائع، كالورقة الكاسية في يد اللاعب، تمسي هي الورقة العظمى، فتكسب كل شيء، أو كعصا موسى تلقف كل كيد، إذا تقدمت في الوقت المناسب.

فإذا لم يحالفه الحجاج القوي، والعرض الموقق – والمحاماة في جوهرها عرض موفق، وقوة منطق – أمسى دفاعه كالفصاحة بهرجًا، وربما أمسى صاحبهما مهرجًا.

الفصاحة والتمثيل في الجلسة على ما شبهها الفرنسيون، مطرقة صاعدة هابطة، يراد بها أن تصيب شيئًا تطرقه. إلا أن الكثرة الغالبة من الطارقين يقضون أعمارهم دون أن يصيبوا... وإن قضوها في أن يصيحوا – فيذهب طرقهم هباء وصياحهم هراء..

انتهى عصر القضية التي تنظر وحدها في دور كامل!.. وعدونا عصر اللاسلكي إلى عصر تحطيم الذرة، وكلما ألم المحامي بموضوعه أوجز، لأنه يكون أنقذ بصرًا وأصح تعبيرًا وحكمًا.

سئل خطيب كبير كم من الزمن يكفيك لتلقى خطبتك؟ قال: ساعات إذا لم أحضر، وساعة إذا حضرت...! إنها لظاهرة غريبة في تطور المحاماة.. أن يقل كلام المحامين في المرافعة عن كلامهم في الخارج!

وإذا قيل ذلك أيام كانت المرافعات ساعات وأيامًا، فكيف، وهي تقاس الآن بالدقائق!! والاستحسان ليس غاية ولكنه بداية، والمحامي الجدير باسمه هو الذي يفهم قضاته أن مرافعته ليست له، ولكنها لهم، وأنهم لا يخضعون لنظامه وإنما هو الخاضع لنظامهم.

المرافعة "فعل" "ورد فعل" وتوجيه للآذان وللأذهان، وظروف الزمان والمكان.

لقد ترافع محام عظيم عن المدعي المدني إحدى الجنايات الكبرى بالصعيد طول الصباح، وفي الهزيع الأول من الليل، حتى أعطى المستشارون الكلمة للهلباوي، متبرمين بما سمعوا، ضجرين مما لبثوا.. فاكتفى بأن قال كلمات ختمها بقوله: ألتمس البراءة... ورفعت الجلسة.. وبرئ موكلوه...

والمترافع كالخطيب الذي يعنى بالأشخاص ثم بالموضوع، أو بالأشخاص من أجل الموضوع.

وإذا بدأ المحامي والقاضي معه فلا خوف عليه في الغالب. قال "دي بوي" وكانوا ينعتونه "بالسيطرة": إذا لم ينل المحامي استحسان القاضي لمركز موكله في عشر الدقائق الأولى فتعسًا له...!

إن افتتاح المرافعة لحظة عصيبة في تاريخ كل قضية، إذ تتفتح عين القاضي وأذنه، على القضية الجديدة والمحامي الجديد. فإذا تسلم المحامي قياده في هذه اللحظة لم يكد يفلته.

إن الناس لا يعرفون مبلغ جذل القاضي إذا التقى في القضية بمحام ثقة. لكأنه يهبط إليه من عالم الملائكة، إلى عالم المنازعات الذي يحيط به.

وليمل المحامي بأسلوبه عن الفكاهة ما استطاع، فالمقام جد، وإذا حانت النكتة فحارت في شفتيه ألقى بها في غير المواقف الخطيرة، دون أن يضحك، فلو ضحك كان كأنما يضحك من نفسه! وإذا استطرد في التنكيت حسبه القاضي يسخر قاعته للمجون.

وليس الزمن الطويل هو التطويل، والدقائق قد تكون تطويلاً إذا هان ما شأن ما يقال، ولا تكون كذلك، إذا كان ما يقال، في أيام طوال، جديرًا بالمقال.

المرافعة كما حدثنا الهلباوي هي عدسة المنظار التي تكشف كل الدقائق التي تشتمل عليها الصورة... لتكشف للقاضي التعاريج والمنحنيات الدقيقة التي يعتمد عليها الخصوم في تكييف المنازعة... والقاضي.. في حاجة لذلك المنظار يساعده على ملاحظة تلك الوقائع..

هي هذه الآلة العالية الصناعة، يقدمها المحامون للقضاة، ليروا من خلال المجهر، مهما بلغ من الدقة والصغر، أحجامًا وأجرامًا لم يكن يدركها البصر.

وبقدر ما يتمكن المحامي من صناعته يستطيع في الزمن القصير أن يعرض خير ما عنده من أمور رئيسية في مفاتيح القضية، فلا يلام القضاة على عدم السماع قدر ما قد يلام المحامون.

ولا يستطيع الحامي الإقناع بالجدل وحده أو بالقانون معه، بل لا بد أن يظهر العدالة في جانبه.

إن محكمة النقض نفسها وهي محكمة القانون أولاً، تكاد تقضي بالعدالة دائمًا...

* * *

إلى هذه الكفايات النادرة جمل الله "هنري روبير" بالتواضع، وقديمًا قال "لابروبير": "إن التواضع مع الكفاية كالظلال مع الصورة تظهرها وتوضحها وتجليها".

لقد ترافع قرابة نصف قرن أمام القضاة والنواب، ولم نسمع عنه حادثًا واحدًا كحوادث "لابوري" أو "فيفاني" أو "إميل إوليفييه" أو "مارشال هول" وقد سلف عنها المقال! أو كأسلوب "بربيه" عندما ترافع في قضية الثلاث عشرة، فقال للنائب العام: "لا... لست حسن النية في هذا الذي تقول. إن القوانين لا تطبق في هذه الأيام ولكنها تفسر بما لا تحتمله إن النصوص ترهق كيما يرهق بها الرجال!" أو كأسلوب "فولتير" عندما قال عن قضاة "كالا": "لا تذكروني بهؤلاء القضاة الذين نصفهم قرود ونصفهم قضاة!".

وإذا كانت المحاماة والقضاة هما الصوت ورجع الصوت، فإن شخصية القاضي ومعنى القضاء شطران لا ينفصلان.

وسنرى بعدُ تحياته للقضاة أو لرجال النيابة في محكمة الجنايات أو محكمة الجنح بل حتى لهذا المحلف الرابع، الذي يقول له: "لقد وجهت من الأسئلة الدقيقة المنتجة ما طمأنني على متاعب الرجل الذي أدافع عنه!".

* * *

فإذا حذر رئيس الجلسة من أن يميل، كاد يغرقه في سيل من التحايا والإطراء.

أما مع الزملاء والمحامين الحدثاء، فكان خير الزملاء، عطفًا وأدبًا وحسن وفاء، يقارب المحامي الشاب ينصحه ويعينه، ويحيى الموتى من أقرانه مثلما يحيى الأحياء.

إليك مؤلفاته جميعًا تنضح أحلى الذكريات عن الزملاء، وأعظم العبارات عن النائب العمومي "كزني دي بوربير" وهو خصمه في قضية "جابريل بومبار" يروي للقراء من مفاخره في قضية "رافاشول" المتهم بوضع قنبلة في مجلس النواب، أن المحلفين كانوا يرتعدون فرقًا إذ جاءتهم كتب بالتهديد، وكان رئيس الجلسة نفسه يكاد يداعبه وهو يتلو عليه صحيفة سوابقه بقوله: "أنا مضطر (!) لأن أذكرك بالأحكام السابق صدروها عليك. إن القانون يحتم على الواجب!" لكن "كزني دي يوريبير" صاح في المحلفين "إذا قررتم إن المتهم يستحق الرأفة – ومن المهانة أن نفترض ذلك – فإن هذا لن يكون إلا أثرًا لأخس العواطف وأدناها وهو الخوف! من ذا يخاف في هذه القاعة؟ إنني سأحرسكم بقوى البوليس إذ تعودون إلى دوركم في هذا المساء، أما أنا فسأسير على قدمي، دون حاجة إلى حراس. ابعثوا رافاشول إلى المقصلة".

مع ذلك بدا للمحلفين أنه يستحق الظروف المخففة، فلم يحكموا بالإعدام. لكن عناية الله تركت العدل فقضى بإعدامه في قضايا أخرى من محكمة أخرى.

أما عن البقية الباقية من الزملاء فتلك تحايا عاطرة لأستاذه "دريبه"، وهذه أمداح تتابع في النقيب "مارتيني" وتقدير لا حد له للخالدين "بوانكاريه" و "بارتو" و "دي بوي" و "ملران" و "بريان" ذي الصوت العذب عندما يترافع، وهذا إعجاب لا حد "يلابوري" وحب "لشارل شني" وإكبار "لباربو" و "روس" و "ديمانج" إلى آخر هذا الثبت الحافل بالرجال، الذي تتردد أسماؤهم في مؤلفاته حتى إذا ساورته المنية استلهمها أيامًا ليكتب سطورًا لم تحل الوفاة بينها وبين الناس، تفيض بالتحايا للقضاة، ولرجال المحاماة... هذه المحاماة التي ملأ الوجود الإنذاني عنها بكلام كأنه الألحان.

في محكمة الجنح

١- (قضية الأطباء)

أو

الدكتور لابورت

أمام محكمة جنح السين (١٨٩٨)

سادتي:

سبق الدكتور "لابورت" إلى المحاكمة لأنه حاول أن ينقذ سيدة من الموت، بدلاً من أن يقف مكتوف اليدين يشاهدها تسلم الروح.

لقد قام بكل واجبه. ومن حقه أن تبرؤوه.

ليست شخصية المتهم وحدها التي تجعل من هذه القضية قضية كبيرة، فلقد عانى من الأسى، والمحنة والمهانة، ما لا يمحوه حكمكم، أيًا كان حكمكم، وأضيف إلى بأسائه وخصاصته، ضياع أمله وانهيار مستقبله.

ولئن كان ثمة عزاء له، إن عزاءه في إيمانه ببراءته، وفي هذه الصداقات التي تحف به، وهذه العواطف التي تحيط به حتى قاعة الجلسة!! مثل من التكافل بين الزملاء خليق بالتحية والإطراء، تضربه جماعة الأطباء للمهن الحرة كافة.

أتراني بحاجة إلى أن أذكر الجمعية الطبية للمقاطعة الثالثة عشرة.. أو الجمعية الطبية لجهات البر... أو اللجنة الإدارية لجمعية أطباء فرنسا... أو الذين شهدوا أمامكم لمصلحة المتهم. بما هو جدير به من العطف والاحترام.

إليهم جميعًا الذين دعوتهم بأسمائهم والأولى لم أذكر أسماءهم، يتوجه دفاع "لابورت" بالشكر، وبخاصة إلى الأستاذ الذي يجله الجميع المذكور "بينار". الذي جاء يجابه تهكم النيابة العمومية، ليدافع عن زميل سيء الحظ، برئ...

من أجل بينار، ومن أجل الباقين، سكن الرأي العام بعد ثورة.. وإني لأرجوكم يا حضرات السادة، الذين تتهمكم ظلمًا، نفوس لم تتح لها المعرفة، بأنكم تدعون الصوت القوي للرأي العام يملي عليكم بعض تشددكم، أرجوكم اليوم أن تستمعوا للرأي العام...

أفسحوا في ضمائركم سبيل الدعوات والصيحات التي تهتف بالبراءة وافتحوا قلوبكم إلى العدالة، والحقيقة، بل والمصلحة الاجتماعية، لا إلى عواطف المواساة والرحمة.

ليست هذه قضية رجل أو طبيب، وإنما هي قضية "الطب" وقضية "الأطباء" إن مستقبل الهيئة الطبية كافة في الميزان، ومطلوب منكم أن تقرروا إلى أي حد تصل مسئولية الطبيب الخاصة وعند أي الحدود يقف حق التحقيق، وأين تبدأ المنطقة المخصصة للعلم، الملجأ المقدس، الحرم، الذي لا يدخله رجل القضاء.

إنما يترقب الأطباء حكمكم في المدائن الكبرى، وفي بقاع الريف النائية، في كل محلة أو دسكرة، ليعدلوا خطتهم وفقه فيلوذوا عند الحاجة "بالامتناع" تفاديًا للمحاكمة.

وهكذا تمثل الصحة العامة في هذه القضية، ويقف المرضى والأطباء حيارى، قلقين، ينتظرون كلمتكم.

بل إن الموت نفسه ليخيل إلي، جاثمًا أمام جثمان السيدة "فرسكيه" يتسمع! مترقبًا، نتيجة هذه الإجراءات.

إنني لا أتكلم عن مسئولية الطبيب في صورة رجل عادي، كأن يجري جراح مخمور عملية جراحية أو يصف الطبيب باستخفاف دواء دون آخر. فهذه أو تلك حالة رجل أخطأ، وليست مسألة عملية، وفي هذا نوافق بغير تحفظ على المبدأ الذي أعلنه في بداية الاستجواب حضرة رئيس الجلسة "مبدأ تساوي الجميع أمام القانون الجنائي" فمن المسلم به في مسائل القتل الخطأ أن دبلوم الطب لا تمنح صاحبها الحصانة فتجعله بمنجاة من يد العدالة.. إنما الذي ننادي به أن الطبيب ليس فوق العدالة لكنه في نفس الوقت.. ليس طريد العدالة..

لقد أوضح السبيل لنا أحد أساطين النظام القضائي منذ كان نائبًا عموميًا، نعني به "ديبان" وهو رجل ثقة سواء في علوم الفقه أو في صحة الحكم، فانظروا بأي عبارات محددة بين لمحكمة النقض المنطقة الطبية المحرمة على أبحاث القضاء حيث قال: "من ذا يفكر في أن يفرض على الأطباء أو أي مهنة علمية أخرى مسئولية مماثلة؟ إن البحث في الحالات المشابهة لا يدور حول العلاج خطأ كان أم صوابًا، أو ضارة نتائجه أم نافعة أو كان غيره خيرًا منه، أو

أن هذه العملية لازمة أو غير لازمة، أو أن تنفيذها كان بمقدرة أم بغير مقدرة، أو أن استخدام أداةٍ خير من استخدام أداة، أو أن اتخاذ طريقة دون غيرها كان يؤدي إلى النجاح – فتلك جميعًا مسائل علمية يتناقش فيها الأطباء، ولا يجوز أن تكون محل مسئولية مدنية ولا أن تبحث أمام القضاء".

ولما نهجت المحكمة العليا هذا النهج قررت أن مسئولية الطبيب لا تقوم إلا عن "الخطأ الاختياري للرجل، والإهمال الفاحش الناشئ عن ترك المريض ورفض الاستمرار في العناية به ورفض زيارته مع طلبها منه"، واستبعدت من المناقشة ما يتعلق بالأمور العلمية.

تلكم هي النصوص والمبادئ القانونية التي نعتمد عليها لا نستعيرها من "القانون الروماني" ولا من "الشاعر موليير" كما استعار حضرة الأفوكاتو العمومي في مرافعته. وليست مبادئنا ونصوصنا، مع ذلك، أقل حسمًا ولا أدنى حجة!

فلنطبق هذه المبادئ على قضيتنا لنرى كيف أنه، إذا استثنينا حالة الخطأ الجسيم التي لا يمكن كشفها هنا، يضطر الاتهام إلى أن يحتمي بالمنطقة العلمية الحرام، وأن يقيم نظريته على قلة دراية مزعومة في الطبيب وهو يجري العملية.

وإن كانت تهمة الجهل وعدم الحيطة، طالما وجهت إلى الدكتور لايورث في هذه القضية، فإن من الضروري أن أعرفكم به بادئ الرأي، وبخاصة من الناحية الطبية.

هو فرع من عائلة ممتازة، يحتل أخوه في تونكين (في الهند الصينية الفرنسية) مركزًا ذا شأن بين رواد الحضارة، وكثيرون من أقربائه شغلوا مناصب إدارية ذات بال، وإني لأتجاوز عن ذكرهم، لا لأنهم ينكرونه اليوم، ولكن لأن "لابورت" ليس من هؤلاء الذي يحتمون بأمجاد أقربائهم.

ولما منحته كلية باريس دبلوم الطب بعد عمله بالمستشفيات راح يبني لنفسه مستقبلها.

سافر مخترقًا المحيط الأطلسي ثمانية عشر شهرًا، طبيبًا لإحدى البواخر، وعاد إلى باريس يقيم مع أمه في شارع "واجرام" ثم شارع "جوفروي" لكن العملاء، في أحياء الأغنياء، لا يقدروه على الطبيب الناشئ الجهول، إلا قليلاً، أو لا يقدرون أبدًا.. وإذن فليصنع كطبيب ما يصنعه المحارب من اختيار ميدان المعركة، وليذهب إلى أحد أحياء الفقراء حيث المنافسة أقل، والحياة أسهل.

واستخدم آخر موارده ليعفي أهله من نفقاته، وسكن مسكنًا متواضعًا أجرته في العام ٣٤٠ فرنكًا.

عرف كل الذين عرفوه والذين رأوا عمله، أنه رجل عمل، بحاثة، وأنه حبى كما سمعتم أمس في هذه القاعة ما أكد لكم أم العمليات القليلة التي أجراها قد استحقت ثناء المرضى والزملاء.

اختار لنفسه لقب "طبيب مولد" وهو اللقب الذي يلومه عليه حضرة الأفوكاتو العمومي!

ولكن فيم تلومه؟ أليس يعرف مسائل الولادة؟ لقد أجمع أطباؤك الشرعيون أنه لم يحد عن قواعد الفن إذ كان يولد السيدة "فرسكيه" تلك الولادة العسرة، ولقد بين لنا أمس أستاذ المادة الذي لا قرين له، أن الدكتور "لابورت" علل ببراعة كل ما عمله من أعمال وأنه في استعماله الملقط، دون أن يحدث ضررًا بأجزاء الجسم الداخلية، قد أثبت خبرة جديرة بالإعجاب حقًا.

لقد كان له كل الحق في أن يحمل لقب "طبيب مولد" مهما قلت – يا حضرة الأفوكاتو العمومي – من أنه لم يمارس عملية التوليد إلا مرتين، وإلا فكم من العمليات تتطلب لكي يستحق تلك التسمية!

أفلا يستطيع المحامي أن يحمل لقب المحاماة قبل أن يترافع أولى مرافعاته أفلا يحمل وكيل النائب العام لقب وكيل النائب العام قبل أن يمثل النائب العام في الجلسة؟ أفلا يسمى قاضي التحقيق قاضي تحقيق قبل أن يجري تحقيقًا..! أترى يعوز هؤلاء شرف الصناعة إذا استعملوا هذا الحق الذي تنازع فيه الطبيب قبل أن يطول مرائه..

إليكم بيان الظروف التي واجهها في تلك الليلة الليلاء – ١١ سبتمبر سنة ١٨٩٧ محاولاً تولدي السيدة "فرسكيه" باستعمال الملقط.

بدأ الوضع بداية سيئة في نحو الحادية عشر والنصف مساء..! إذ علم هنالك من الممرضة أن السيدة "فرسكيه" ولدت خمس ولادات من قبل وكانت جميعًا متعسرة، وأن الملتقط استعمل في ولادة أربعة منهم، وأنها تعاني آلام المخاض من يوم سابق، وأن الممرضة الشابة التي زارتها في بداية الوضع قررت أن ليس ثمة وجه للاستعجال، فبارحتها.

وهكذا تراكمت الأخطاء التي ارتكبها غيره قبل أن تطأ قدماه عتبة الدار.

وسترون ي هذه القضية التي اتهم فيها وحده كيف تقع المسئوليات الكبرى على كواهل غيره ممن جاءوا إلى هذه القاعة يشهدون!

رجعت الممرضة في صباح ١١ سبتمبر سنة ١٨٩٧ فبدا لها أن الآلام قد زالت فانصرفت، ولم يدعها أحد بعد ذلك، فعادت من نفسها في الثامنة مساء، وكان الكيس قد انفجر بعد الظهر وهي علامة من الطبيعة تنبئ باقتراب الخلاص.. فلماذا لم يبعث المسيو "فرنسكيه" في طلب الممرضة؟

ولو كانت الممرضة إلى جوار السيدة، وهي تعرف وضع الجنين المعيب، لبعثت من فورها في طلب الطبيب!!.. وإذن لكان محتملاً أن تتفادى كل تلك المضاعفات.. وأيًا كانت الحال، فقد كان في الإمكان التصرف بحرية وفي الوقت نفسه، فالممرضة لم تطلب معاونة الطبيب إلا في الثامنة مساء إذ تراءت لها نذر الخطر. ومع ذلك أفهمها الزوج أنه لا حق له في المعونة المجانية على يد طبيب الإسعاف (الليلي) إلا بعد العاشرة مساء!.. وأن عليهم أن ينتظروا..!

وهكذا يا حضرات السادة، نرى في باريس، وفي نهاية القرن التاسع عشر، أنه يجب على الإنسان، كي يعالج أو يموت بالمجان، أن ينتظر دقات الساعة التي تحددها بلدية باريس.

تحملت الممرضة مسئولية المضاعفات التي نجمت في الساعتين المذكورتين، ووافقت على انتظار مدة كان لها – بل كان عليها – فيها أن تستدعي الطبيب. أما الزوج، وهو العليم من حالات الوضع السابقة بما تتعرض له زوجته من الخطر، فقد آثر أن ينتظر!!.. مترددًا في أن يضحى خمسة الفرنكات التي كانت معه – كما أثبت التحقيق – فيدفع أجر الطبيب، فهو بهذا التأخير لا إصلاح له قد عرض – عن علم – أم العائلة للفناء وتلكم هي الخطيئة الثانية والحماقة البالغة.

لم يتمكن الدكتور "لابورت" من فحص السيدة إلا في الحادثة عشرة والنصف، بعد أن استبانت الممرضة ألا معدي عن وجوده، فوصل مزودًا بملقطه – وهو يؤكد أن الرسول الذي دعاه لم يخبره إلا عن حاجة الحامل إلى (ملقط) وإنه ليطلب إلى المحكمة إذ خالجها الشك في ذلك. أن تسأل هذا الرسول.

وإلى هذا فقد قالت الممرضة أمام "مدام فرسكيه" إن الحالة لا تحتاج إلى استعمال الملقط!

ها هو ذا الدكتور لابورت إلى جوار مخدع السيدة البائسة تسوء حالتها حينًا فحينًا. يبذل قصاراه لفحصها، على ضوء شمعة يتصاعد منها الدخان، بين نظرات كارهة من الجارات الثرثارات، اللواتي جئن باسم المجاملات، يملأن أسماعهن، ويشبعهن فضولهن، من آهات السيدة وأناتها، فازدادت سوءًا، وكان أول مبادئ الحكمة أن يخرج الطبيب هؤلاء الفضوليات. اللاتي لا عمل لهن إلى جوارها، فكان حيطة نافعة للمريضة، ونكبة بالغة للطبيب!

لقد تجمع هؤلاء المتفرجات اللواتي أصبن في أملهن، خلف باب، مسدود كمفتوح، فتحولن إلى جاسوسات، خصيمات، ينتقدن كل حركة تجربها يد الطبيب.

استعمل الملقط ثلاث مرات على غير طائل، وتحرج الوضع، وخارت قوى المريضة، فهي تتوجع من أربع وعشرين ساعة، وانقباضات الرحم تجعل الولادة محالاً، بل كان الجنين ميتًا فلم يكن يساعد بحركاته في الخروج، وهذه الوقائع المسلمة تظهرنا على مبلغ الخلاف بين الممرضة والشهود.

شهد المسيو "فرسكيه" والسيدة "هوبير" أن الجنين كان ما يزال حيًا إذ باشر "لابورت" تشريح الجمجمة وأن الممرضة سمعت دقات قليه، أما هي فقررات أنها لم تسمع لقلبه دقاء وأنه كان ميتًا.

لقد كان على الدكتور "لابورت" في ذلك الوقت أن يسلك واحدة من ثلاث:

إما أن ينصرف ويدع الطبيعة تصنع صنعها، وكان هو الوفاة، ولكن بلا لوم على الطبيب.. وكان ذلك دناءه.. لا جريمة!

وإما أن يستمر في استعمال الملقط رغم ما منى به من الخيبة في ثلاثة أرباع ساعة كلها محاولات، فيقضي على كل مقاومة للسيدة، وينزع الجنين، ويمزق الجسد الأم، فيرتكب عملاً من أعمال الوحوش إذ يقتل المريضة.. ولا جناح عليه.

وإما أن يلزم مكانه ويؤدي واجبه، فيقوم بإجراء عملية خطيرة أفهمته معلوماته الدراسية ضرورتها، والعجلة اللازمة للقيام بها، رغم ما يحيط به من ظروف غير مواتية، من انعدام المعونة الواجبة، والأدوات الخاصة، ومع ذلك يقوم بها من فوره، وحيدًا، في الظلام، وفي أعالي الدار...

كان ذلك هو الواجب الذي أملاه العلم وذمة الطبيب، ولقد اختار القيام بواجبه... فجوزي بالاتهام..

أيها الفتى التعس: ماذا صنعت!.. لقد كان المخرج لك أن تبرح الدار وتدع المريضة تلفظ أنفاسها الأخيرة في هدوء! وكنت ستتقاضى العشرين فرنكًا بعينها.. أما الشهرة فأنت العليم بأنها لا تلتمس في العراء، تحت أسقف الفقراء.. لقد كان لك أن تلقي السمع إلى صوت الدناءة فتنجو. أما شرف المهنة فلا شيء لأن المصلحة كل شيء!!!

أفكان من المحكمة أن ينصح المريضة هذا النصح في ذلك الموقف الميئوس منه؟ لقد كانت "مدام فرسكية" في آخر مراحل انهيارها بعد المحاولات الثلاث الخائبة لاستعمال الملقط، وكانت العقدة تدنو من حلها الرهيب!... بصرف النظر عن إرادتها التي أعلنتها إلى الممرضة أولاً وإلى "لابورت" ثانيًا، أنها ترتاع من الذهاب إلى المستشفى.

أفكان عليه كما تقولون أن يعرضها إلى مخاطرات المحفة والانتظار الطويل، وقد يكون على غير طائل، لمجيء النقالة – وفي كلمة واحدة يعرضها للموت المحقق وفي الطريق العام. ولقد كانت نائمة ومن المحتمل أن تصحو.

ثم ما الذي كان يفيده سوء استعمال هذا الحق؟ حق الاستعانة في المستشفى بكبار الأطباء لقد كانت الساعة الواحدة والنصف صباحًا، وليس من المستشفى أساتذة كبار إذ لا يبيت فيه إلا الطبيب المقيم وممرضه، هما أقل خبرة من "لابروت"! وكانا سيلتزمان – في انتظار الرؤساء الإداريين – إعطاءها العلاجات المؤقتة، وهي هي العلاجات التي عولجتها. حتى جاء الدكتور "بالوا" في الغداة ورأي أن تنتقل إلى المستشفى – فلم يكن يترتب على إجراء النقل إلا أن تستيقظ المريضة لتبقى دون تصرف، في ذلك المكان الذي تكرهه.

وإذن فهل يكتفي الدكتور "لابورت" بأن ينتظر قدوم طبيب آخر أكثر اختبارًا؟ ومن يستدعي؟ وبأي صفة! وكم من الزمن ينتظر؟ ومن ذا الطبيب الذي يعلم أن طبيب الإسعاف – "لابورت" – إلى جوار مريضة. فيذهب لينضم إليه، أو ليحل محله؟

الواجب إذن أمام "لابورت" وإن عليه أن يقوم بواجبه...

ولقد تكون نجاة المريضة في إجراء تلك العملية النادرة التي لم يجر بها من قبل إلا على "النماذج" وهو تلميذ، وهو يعرفها، ويقدر عليها، فليقم بها، وهو القاضي الوحيد ذو القول الفصل في إجرائها من عدمه، لأنه يعمل في أخص اختصاصاته كطبيب.

إنه وحده رأي المريضة، بذاتها، في تلك الساعة بذاتها، وهو وحده يستطيع أن يدرك الخطر على حياتها.

وفي هذه اللحظة الفاصلة، التي لم تك فيها قوة إنسانية أخرى تساعده، استطاع أن يقدر وحده أين، ومتى، وكيف، ينصرف.

والرجل الذي يدرك الواجب إدراكه لا يتردد، بل يعمل العملية من فوره وليعب ذلك عليه من يعيبه، وليعب عليه أنه لم يستعمل الآلة التقليدية، أو استعمل أدوات أولية، فلقد كان من حقه أن يصنع ذلك كما أكد الخبراء وكما تقرره مؤلفات العلماء. لقد صاح البروفسير "تارنييه" بأعلى صوته في أحد المؤتمرات قائلاً: "هل بي حاجة إلى أن أقول: إنه يجب تعقيم الأشياء وتطهيرها!.. ومع ذلك عرضت لي حالة مستعجلة قنعت فيها بنصف دستة من المناديل أخرجتها من دولاب المريضة ووضعتها – مطبقة كما هي – في الرحم".

أأذكر لكم أخيرًا "تروسو العظيم" الذي أجرى عملية فتح قناة التنفس لأول مرة دون أن تكون دلهي آلة واحدة من أدوات الطب، إذ أحس بتوقف التنفس في حلق المريض الصغير، فأمسك بسكين مطبخ دون أن يفكر حتى في مسحها، ليفتح فيدخل خلالها أنبوبة ماسورة من الرصاص تأذن للهواء بالدخول انتزعها من جهاز الغاز!

ها هو ذا الابتكار الطبي في منتهى بساطته العبقرية! فإذا نجحت العملية صار الطبيب عظيمًا.. وإذا أخفقت صار أثيما. وسقناه إلى السجن.

أفلا تساءل بهذه المناسبة هيئة الإسعاف العامة، التي توفد أطباء حديثين في هذه الخدمات الشاقة، وهي مدركة أن أحدًا منهم لا يملك الأدوات الثمينة اللازمة. لماذا لا تضعها تحت تصرفهم، ولو في نقط البوليس؟

لقد اضطر الدكتور لابورت إلى أن يطلب من السيدة "فرسكيه" (صندوق أدواتها) فإن إتزانه لم يفارقه لحظة – واختار الآلات منها إلى طلبة، بينما يحدق به جو من السخيمة، تنفث من السخط أنفاس النسوة الثلاث الصاخبات المشتركات (الأبونيهات) في كل ولادات الحي، اللواتي خاصمته لأنه أدى واجبه بإخلاء الغرفة منهن، فكن سعيدات بإخفاقه، سعيدات بأن يأذن لهن إلى الدخول باسم المساعدة، فتقاسمن أعضاء المريضة مشغوفات بما في أيديهن من غيمة! تحفزهن مناظر الألم. يتحسس حركات الطبيب، وهن لا يعرفن شيئًا ولا يستطيع تقدير شيء، لكنهن ما فيهن من حقد وتطلع خائب، يلمه طورًا لجراءته وطورًا لجبنه!

وياليتهن – وياليت المسيو "فرسكيه" مثلهن – قنع بالتعلق والنقد! لقد استجوبت إحداهن "لابورت" وعابت عليه جفونه، أما فرسكيه فنزع الآلة من بين يديه، واعترض على إدخال الإبرة ثانية، وجاءت أخرى تنزع المقص، وفي هذه الظروف المؤلمة، في وسط هذا المجمع، وهذه الشتائم، بل هذه القسوة، أصر الطبيب على أن يجري العملية.. الطبيب الذي لم يشبع جوعته، ولم يتم كفايته.. الذي أصر في الثانية صياحًا، في ضوء سيء، ومساعدين سيئين، وأدوات سيئة على أن يجري بسرعة، عملية من أخطر العمليات وأدقها، ومع ذلك تلومونه لأنه لم ينجح.

إن الاتهام ليس إلا لهذا – لأن الطبيب جاء لإنقاذها فماتت.. فهو مسئول..

تعليل إنساني حقًا! إنساني مع الأسف! فإن فرائصنا ترتعد فزعًا من الموت، إذ تحس أننا دائمًا تحت رحمته، فتؤاخذ المنوط بهم أن يدفعوه لإخفاقهم في أن يردوه..!

يحدونا الغرور الزائف إلى أن نكابر في الهزيمة أمام هذه القادرة الذي لا راد لقضائه!.. فتتحول نقمتنا التي لا تنال منه، إلى الطبيب، في ولولة حاقدة، ليست إلا تعبيرًا موجعًا عن الضعة والغرور الإنساني!

ذلك هو الباعث الخفي، الحقيقي، القضية القائمة..!!

ولما قبض على "لابورت" بعد ثمانية أيام من إجراء العملية كان يحسب أن العملية نجحت!.. وأن محاولاته توجت بتاج العبقرية.. فيالسخرية الأقدار..

تقول النيابة أنها أول مرة يجري فيها عملية تشريح جمجمة، ويا لها من قاله عجب؟

أليس واجبًا أن يعمل عمل للمرة الأولى؟ إنما المهم: أواجبه كانت العملية أم لا واجبه!

لقد اتفق الدكتوران "تيار وميجرييه" على ضرورتها وكرر أنه كان مستقينًا نجاحها ويبدو أن الممرضة كانت تشاركه اعتقاده.

ثم التوليد بلا نزيف ولا اضطرابات أو مضاعفات ظاهرة. فهم "لابورت" بأن يفصل، فسألته الممرضة أن يكمل للخلاص، فصنع، وزودها بالنصح اللازم ومضى.. ولم يستدع بعد ذلك، ولم عليه – كطبيب ليلي – أن يعود.

تلكم هي الملابسات جميعًا ليس فيها حادث واحد يشير إلى أنه ارتكب خطأ جسيمًا كرجل. أما العملية نفسها وطريقة إجرائها فليس على أن أتكلم فيها، وليس أن تحققوها.

ومع ذلك فيجب الكلام في درس التوليد الذي ألقاه حضرة الأفوكاتو العمومي للجمهورية..

"وأخذ يناقش تقارير الخبراء والأفوكاتو العمومي" ثم قال: وهكذا تنهار على التعاقب أسباب الاتهام ولا يبقى منه إلا حاصله وهو يتلخص فيما يأتي:

لم يكن "لابورت" حاذقًا إذا خاطر بالعملية، ولم يكن حازمًا إذا لم ينجح فيها!

لكنك لا ترى، ولا تريد أن ترى، أن هذين النقصين في الحكمة وفي الحزم، وهما غير ثابتين، لا يقعان تحت طائلة العقاب.

في هذه الساعات الفاصلة في حياة الطبيب، حيث يضغطه الزمن، ويتهدد الخطر، وحيث الموت فاغر فاه، يشجع الطبيب الهياب، ويتخذ من فوره قراره، ولا معقب عليه فيه إلا العلم الذي يوحي إليه، والضمير الذي يحكم عليه.

إنك تريد يا حضرة الأفوكاتو العمومي كما تقول أن تضرب في الدكتور "لابورت" مثلاً للهيئة الطبية كافة؟. ولكن لماذا تعمدون لإصلاح الخطايا إلى انتخاب الضحايا من الضعفاء والمتواضعين؟

كم من المرضى لفظوا أنفاسهم الأخيرة في أثناء العمليات بين أيدي كبار الأطباء، فهل جرؤت على أن توجه إليه الاتهام؟ لو كان ثمة فساد في الهيئة الطبية – وهو ما لا أود تصديقه – فاضربوا على أيدي المفسدين! ولكن ابدءوا بالرءوس! اضربوا كبار الأطباء، كبار الأسماء، وسيستطيع هؤلاء أن يجيبوكم، وعندما يجيء المثل من عل، تكون له رنة في الأذن!

ولكن أين تبصرون فسادًا في الطب الحديث؟ ألا تبصرون إلا عدم النجاح، ألا تسمعون إلا صيحات الشكاة؟

أفما رأيتم ما يحيط بكم من ضروب الجسارة وإنكار الذات والتضحيات التي تقدمها لنا الهيئة الطبية الفرنسية الجليلة، الخصبة في إنتاج الأبطال والضحايا.

افتحوا أعينكم على قاعات الدفتريا حيث الأطباء الداخليون والخارجيون عاكفون على أعمالهم، ينتثر الموت من حولهم في الشهقات والزفرات، ليس منهم من تردد أو ارتعد.. ارجعوا إلى إحصاءات الحمى الصفراء والدفتريا والكوليرا، وأحصوا أعداد الأطباء الذين سقطوا صرعى الواجب في ساحات الشرف، وتساءلوا بينكم أهذه هي الطائفة الثائرة التي تحلمون بإبادتها!

هؤلاء البنون البررة للعلم، الذين يصارعون الموت في كل مكان فيصرعونه تارة، وتارة يصرعهم لكنهم يستحقون الإعجاب في كل حال! الذين يتوارثون أعلى الفضائل وأعظم الشجاعات: الشجاعة المدنية.

والآن يا حضرات السادة: أتريدون أن تعرفوا إلى أي مكان تقودكم نظرية القسر التي لم يسمع بمثلها في البلاد، والتي راد منكم أن تفتتحوا عهدها؟

هل تجدون نظرية (ديبان) أكثر سماحة وملاءمة للأطباء؟

هل ترون تعديلها بالتغلغل بالتحقيقات والتنقيب عن المسئوليات؟

* * *

حذار! حذار! أيها الذين تتهمون الطبيب عند قيامه بواجبات مهنته دون أن يكون لديكم اللقب أو العلم.. حذار أن تتهموا – أنتم أيضًا – بعدم التبصر والإدعاء! إنكم ستلجئون إلى مستشاريكم العاديين وهم الأطباء الخبراء، فستكونون تحت رحمتهم، وسيكونون وحدهم هم الذين يصدرون أحكامكم، فسيكون قضاؤكم تحكمًا ونتيجة للنزاعات المذهبية، وإذا تأثرت العدالة بذلك فإن ضحاياها الحقيقيين سيكونون هؤلاء الذين يراد منكم أن تحموهم، وهم المرضى.

أجل كل أولئك الذين لا بد لإنقاذهم من معجزة، الذين لا ينجيهم إلا عملية ذات خطر، يقبلون إجراءها مع علمهم بخطرها، كل هؤلاء تتراءى لهم في هذا اللحظة الحالية صور أطبائهم وهم يترددون؟

إنما هي صيحة تحذير للهيئة الطبية قاطبة.. لهذه الكوكبة من أطباء الريف، الذين ليسوا جميعًا من المشاهير ولكنهم ليسوا أقل اقتدارًا على تخفيف الألم وبرء المريض، فإذا كان الطبيب منهم يقاد إلى المحكمة ليحبس ويلوث، لأنه واجه حالة خطيرة فأجرى عملية لم تنجح، فإن الخير له كل الخير أن يمتنع فيدع المريض يموت ذلك الموت الجميل.. ذلك هو مقالهم اليوم يردده الأطباء كافة، أجمعوا رأيهم على أن يجيبوا عن نظرية التفتيش (محكمة التفتيش) بعملية "الامتناع"!

ذلك نظام وقوف الأطباء مكتوفي الأذرع أمام الألم. نظام "دعه يمت".

وإذا كان منهم من يسمو بواجبات المهنة فوق كل شيء أو كان منهم من يخاطر بعمل المستحيل في مخدع المريض المشرف فحذار أن يتذكر ذلك في الساعة الفاصلة، في اللحظة

النهائية، وفي يده مبضع الجراح، أداة الفناء، يريد أن يجعل منها أداء بقاء، محاولاً أن يحدث بها الجراحة المنقذة.

حذار أن تطوف بمخيلته عندئذ ذكريات "لابورت" الطبيب الشاحب السجين.. حذار أن تطوف الرؤيا المروعة لهذا الطبيب وهو يجر إلى السجن.

حذار أن يسيطر عليه هذا التأثر المؤلم في ساعة تستوجب أن تتوافر عنده حرية نفسه في كمالها" واتزانه في تمامه، فيتذكر الطبيب أن شرفه كله، وسمعته كلها، وحريته كلها، في الميزان.

إن العدالة نفسها بذلك البطش الذي ليس من سمات العصر ستتكافل جميعها في أن يزيغ بصره وترتعد يداه!!

إن الدكتور لابورت أمامكم وستصدرون فيه حكمكم".

* * *

لو أني لم أكن أعرف الرئيس الذي يدير هذه الجلسات، أو كنت أجهل المواهب النادرة التي يزدان بها قلبه ونفسه، وتذكرات الكلمات التي قيلت في أثناء الاستجواب – فقوانيننا بنص يؤسف له، تجعل القاضي الذي يستجوب هو القاضي الذي يحكم – إذت لأخذتني الرعدة مخافة أن يكون ثمة رأي سابق يعكر الصفو في ضمير القضاء! لكني أدرك أيضًا أن الرجال أصحاب العاطفة المندفعة، هم أدنى الرجال إلى التسليم بالحقيقة وأكثرهم استجابة إلى الإنسانية والسماحة.

وإلى هذا تطمئن نفسي.

إنني أطرح بين أيديكم شرف هذا الرجل وحريته، وديعة مقدسة أودعكموها وستردونها إليه سالمة.

٢- قضية المسيو ومدام (همبير)

ضد

المصري المصري قطّاوي

أمام محكمة جنح السين سنة ١٩٠٨

اتهم المسيو "همبير" وزوجته المسيو قطاوي بتهمة الإقراض بربا فاحش وبالتزوير وحفظت الشكوى – فرفع قطاوي دعوى البلاغ الكاذب ضد "همبير" وزوجته فترافع عنهما "هنري روبير".

قال: عندما اعترض الأستاذ "رودلف روسو" – بحق – منذ لحظات على اعتراضات الجمهور الذي تزدحم به هذه القاعة بدرت منه كلمة تحكم على المرافعة الطويلة الشاقة التي بذل فيها مجهودًا اجتماعيًا وفكريًا ظاهرًا قال: إن أحدًا لن يمنعني أن أقدم "الدفاع" عن المسيو قطاوي.

فلنسجل عليه هذه الكلمة، لأنها تقضي في كل القضية.

لقد لاحظ في بداية ملاحظاته – مدفوعًا يقوي الأشياء – أن عليه أن يدافع عن الوزير الذي ترفرف ظلاله على هذه الإجراءات، وغفل عن أمر الحفظ الذي ظفر به المسيو قطاوي ظنًا منه أنه ما يزال متهمًا فعمل جاهدًا لتبرئته لاتهام المتهمين الحاليين.

ولقد خيل إليّ في إبان مرافعته أننا لا نترافع في قضية البلاغ الكاذب المرفوعة من البنكير المصري إيلي قطاوي ضد "مسيو ومدام همبير" بل خيل إلى أننا نترافع في قضية الربا الفاحش التي يحتل فيها المسيو قطاوي محله الحقيقي في قفص الاتهام. لقد نجا قطاوي بأعجوبة من محكمة الجنح.. وسأدلي لكم بالأسباب السرية لأمر الحفظ غير الموقف الذي صدر في الدعوى.

لن أشق عليكم بالتفاصيل ولا بالأرقام، وبحسبي أن أتلو عليكم نتيجة تقرير الخبير، وأن أضع تحت أعينكم تقريرات قاضي التحقيق نفسه، وأدع بين أيديكم السؤال الوحيد لتجيبوا بأنفسكم

عنه وهو: هل كان "المسيو ومدام همبير" حسني النية عندما قاما الشكوى ضد قطاوي بالربا الفاحش وهل له الحق في مقاضاتهما بتهمة البلاغ الكاذب؟

عندما ظهرت في الصحف الأنباء الأولى لهذه القضية – فلقد أشارت إليها الصحف إشارة أهل العلم قبل أن تصل إلينا عريضة افتتاحها!– ظن رجال حسنو النية أن ثمة أضحوكة يراد بها الدعابة باختراع أكذوبة خطيرة.. فلقد كان عملاً جهنميًا ومع ذلك كان صحيحًا.

بل تساءل صحبه وحاشيته المقربون: هل أصابته لوثة!!

فإن هذا الرجل لا يطمح إلا إلى شيء واحد.. هو الظلام، هو الصمت، اللازمان له ليجمع الملايين.. وأخيرًا فإني أشكر لزميلي ما في مرافعته من صراحة أفهمتني أن هذه القضية لم ترفع إلا فزعًا من المحلفين، ذلك بأنهم يخشون البصيرة النافذة لمحلفي السين. (باريس).

يخافون أن تذهب إلى محكمة الجنايات فتظهر كيف ذابت رءوس الأموال الفرنسية عند هذا البنكير المصري، فلا يمالئ المحلفون ذلك المرابي الأشهر، ويريدون أن ينفخوا "مدام همبير" بالهواء ليجبروها على الإفضاء، في القضية الحالية، حيث قلدت بالصمت في التحقيق، نفس قاضي التحقيق، لكنه شرك واسع الخروق، لن نقع فيه – فلن تقول اليوم "مدام همبير" ما لم ترض قبل أن تقول – وسنقوله للقضاة الطبيعيين للقضية، محلفي محكمة "جنايات السين".

ولنقصر المرافعة الآن على القضية الحالية:

وفي ٢٩ مايو سنة ١٩٠٢ صدر أمر الحفظ في الشكوى المقدمة ضد قطاوي قبل أن تشكل بأيام الوزارة التي أصبح عضوًا فيها المسيو.. "فلان" وكان يوم ذلك محاميًا عن قطاوي.

وإليكم نص قرار الحفظ:

حيث إن شهر إفلاس "فردريك همبير" بحكم من المحكمة التجارية بطبع المعاملات بينه وبين قطاوي بالطابع التجاري.

"وحيث إن التهمة فضلاً عن ذلك ليست ثابتة ثبوتًا كافيًا".

والحيثية الأخرى حيثية دارجة مبتذلة، لم تكتب بخط القاضي ولكنها مطبوعة.

قلت من قبل إن أمر الحفظ لم يكن عملاً موفقًا. فهل احتوى الدليل على براءة قطاوي؟ كلا على الإطلاق!

أو هل نضمن أن التهمة غير صحيحة؟ كلا. كلا!

إنما نجا المسيو قطاوي لأن المسيو "همبير" كان تاجرًا..!

ولو كان موكلاي يريدان تأخيرًا للقضاء في هذه القضية لقالا: إن "مدام همبير" والآنسة "دورنياك" – أختها – غير تاجرتين فلا حجة عليهما لأمر الحفظ، ويومئذ كانت المعارضة في الأمر كافية للتأخير.. وكان يكفي أن نطلب التأجيل.

ولو صنعنا ذلك لهز الخصم عطفية جذلاً، لأنه لا يريد من هذه الإجراءات إلا أن يتراجع "المسيو ومدام همبير".

لكنهما جاءا يطلبان أن تحاكما.

وأيًا كان السلطان الذي يمكن أن يستغله المحامي السابق الأستاذ "فلان" فنحن ندرك أننا نترافع أمام قضاة نزهاء لن يستجيبوا لغير داعي العدالة.

لقد قرأت من قبل أمر الحفظ، ويبدو لي أنه قد أسيء تحريره وأن الحيثيتين اللتين قام عليهما يجوز تغييرهما بالآتي:

"من حيث إن محامي قطاوي السابق على وشك أن يتولى الوزارة"

"ومن حيث إن من الضروري إصدار أمر حفظ من أجله.."

وإذا كان هذا قولاً غير قانوني؛ فإنه يكاد يكون القول الحقيقي.

وعندما ذاع نبأ القبض على مسيو همبير وزوجته أديرت كئوس الشمبانيا في وزارة.. وأظنها أديرت في دار المسيو.. صهر قطاوي أو في دار قطاوي نفسه..

فلندرس الموقف بالنسبة لقطاوي و "المسيو همبير" وزوجته دون تعرض لتحقيق يفيض بوجوه من البطلان لا تقبل التصحيح، سنتقدم بها في الوقت المناسب.

ليس من الضروري أن نتناحر كما صنع زميلي عن قطاوي في همه وفصاحة ليستا في مقدوري.. فهو لم يرحم أحدًا في مرافعته، حتى المسيو "جوستاف همبير".. وأنا أقف عند هذا الاسم، فلقد زارتني سيدة في السابعة والسبعين. عظيمة النشاط، عظيمة الأسى، هي أرملة وزير العدل السابق فأفعمت قلبي سجنًا.

لقد احتجت بكل قواها، متمسكة بثقتها المطلقة في شرف زوجها ولا أستطيع مع هذا إلا أن أعلن الدهشة لما ورد من أقوال على لسان زميلي عن الخصم.

وكما لم يرحم الموتى. لم يرحم الزملاء.. ولو على لي أن أستعمل في هذه المذبحة نفس الأسلحة؛ فما كان أهون الأمر، لكن المحامي لا يملك الكلام ضد المحامين الآخرين. فلن تسمعوا مني اسمًا لزميل.

* * *

إذا بحثنا تفاصيل العمليات الأولى بين قطاوي، و"مدام همبير" برز لنا في بداية العمليات دليل الربا.

لقد أوضح لكم الأستاذ "روسو" نفسه بين تأثرنا العميق، أن أولى العمليات كانت عن بيع "عقد الإمبراطورة القديم" ولا أعرف كيف تناهى العقد في سنة ١٨٧٧ إلى عائلة قطاوي!

لم يرق مدام قطاوي أن تحمل هذا العقد فتخلصت منه، وبينما يقدر موكلي أن ثمنه نحو ١٥ ألفًا من الفرنكات إذا بقطاوي يبيعهم إياه بمائة وعشرين ألفًا.

ها هو ذا البنكير الذي لا ترقى إليه الريب، كالمرابي التقليدي، يبدأ بأن يبيع لأبناء العائلات تماسيح من القش... "يبيع لمدام همبير" عقدًا بثمانية أضعاف ثمنه.

هذه الواقعة البسيطة تمكننا من الحكم على استهلاك هذه العمليات.. ثم تتابعت العمليات.

وفي ١٧ من ديسمبر سنة ١٩٠١ أي بعد ١٤ عامًا قُدمت الشكوى بالربا الفاحش. وفتح التحقيق مع قطاوي فأبدى محاميه استنكاره بقوله: "إن العدالة الفرنسية تجثو تحت أقدام "مسيو ومدام همبير" وإن اتخاذ الإجراءات ضد هذا الرجل الشريف (قطاوي) يتجافى مع القصد والنصفة.. وكان يجب إجراء تحقيقات أولية (تحريات) قبل أن يشرع قاضي التحقيق في إجراءاته!

إنني أفهم هذه الحسرات. فلو أجريت هذه التحريات قبل أن يشرع قاضي التحقيق في عمله، لأتيحت لقطاوي فترة كافية لإخفاء حساباته واتخاذ احتياطاته!

لقد جرت العدالة مسرعة، مرة! ففيم التأذي من ذلك الفضل النادر الحدوث!

سوف أغفل ما قيل ضد النائب العمومي والأفوكاتو العمومي اللذين يعرف لهما وزير العدل قدرهما من السمو والحصانة، وإذا كان الزميل الجليل قد أحس بحاجة إلى أن يدافع عن قطاوي وعن صديقه الشخصي المسيو "فلان"... فإني لن أترافع إلا عن موكلي.

افتتح التحقيق قاضي التحقيق، وسأحدثكم عما أسميه "الرحلة إلى مصر" وبعبارة أخرى "تهريب دفاتر الحسابات إلى الإسكندرية".

علم البنكير أن الشكوى تقدمت ضده. ودعي للتحقيق، وتحدث معه قاضي التحقيق كما يأتي "لست أريد أن أتخذ ضدك إجراءات قاسية، وأنت صاحب مصرف يعكر التفتيش صفو عملك، فعدني بأن تقدم دفاترك".

فافترض الفرص، وأعطى كلمة الشرف، قائلاً إنما سيقدم إلى الخبير المعين في مساء ٢٨ من سبتمبر دفاتر حساباته ابتداء من سنة ١٨٨٧. لكن كلمة الشرف ليست كلمة شرف إذا صدرت من الرجل الذي يخاصم اليوم مدام همبير... وسترون كيف أوفى بعهده.

أحس "رومان دورنياك" أخو مدام همبير والآنسة دورنياك" أن قطاوي، قد يفكر في إخفاء أوراقه، فراقبه في داره، فوقع بصره يومًا على عربه "المساجري ماريتيم" أمام منزل قطاوي تنقل إليها ستة صناديق ضخمة، وعلم من السائق أنها تحتوي دفاتر حسابات!... من محل قطاوي فلم يضع لحظة، وقصد مع "مدام همبير" إلى قاضي التحقيق في أول أكتوبر سنة ١٩٠١، يبلغانه "أن جميع حسابات قطاوي ستهرب إلى مصر ويحسن اتخاذ الاحتياطات".

قال القاضي "لا يمكن أن يرتكب قطاوي في هذه الحماقة التي تخسره كل شيء ولقد أعطاني كلمة الشرف!

لكن دورنياك، العليم بكلمات الشرف عند أصحاب المصارف، قال له لا قيمة لهذه الكلمة. قال القاضي: فلنتخذ الاحتياطات.

وفي أول أكتوبر انتدب المسيو "روى" مأمور الضبطية القضائية للتفتيش، فاسمعوا إذن لتقرروا حسن نية قطاوي فسأقدمه لكم متلبسًا بجريرة عدم الصدق. ولتقرأ محضر المسيو "روي" في مكتب شركة المساجري بميدان الجمهورية:

قابلنا مدير المساجري مريتيم ورئيس قسم التعبئة وانطلقا معنا إلى حيث أظهرانا على الصناديق الستة التي هي موضوع الشكوى.. فوجدناها.. تحمل أرقامًا مسلسلة من ١-٦.. فتحنا الثالث منها فوجدنا فيه دفاتر حسابات قطاوي فضبطناها.

وسألنا رئيس التعبئة عن صاحب هذه الرسالة فقرر لنا، والأوراق بيده، أن المرسل هو "إخوان سوارس بمصر" بشارع لافايت رقم ١٤ وأن الميناء المرسلة إليها هي "إسكندرية" وقدم إلينا ورقة العربة المرافقة، تتضمن بيانًا عن محتويات الطرود "أوراق عمليات تجارية" وزنها ٢١١ كيلو جرام.

ولما قدم هذه الورقة قرر أنه لا ريب لديه في أن مصدر الرسالة، ليس محل سوارس، وإن كانت الرسالة جاءت منه! لأن المسيو قطاوي قد تحدث أمس تليفونيًا لأخذ الطرود، حالاً، وتوصيلها، حالاً، بأقصى سرعة.. ولقد كانت مرحلة، لو أمكن تحقيق تلك الرغبة عندما تحدث قطاوي كانت راحلة غدًا، صباحًا ولقد سألنا رئيس التعبئة عن المحادثة التليفونية التي جاءت من محل قطاوي أو أنه نفسه هو المتحدث، فأجاب غير متردد، وهو يؤكد، أن المسيو قطاوي معروف لديه وأنه تكلم بنفسه.

هذه الدفاتر إذن مصدره تحت اسم مزور. لأن أصحاب بنك قطاوي ثلاثة: إيلي، ويوسف، وموسى. الأنبياء الثلاثة! لكن التصدير كان باسم سوارس، لحساب سوارس، إلى "الإسكندرية".

وإذن أستطيع أن أقول لقطاوي: لقد أعطيت كلمة الشرف باعتبارك رجلاً مرابيًا، لا رجلاً شريفًا، تقدم أوراقك للخبير، لكنك كنت تبيت الغدر في نفس اللحظة، وبعد أن أقسمت للقاضي ألا تخفى دفترًا من دفاترك، حاولت تلك المحاولات الجارمة، لتحول دون تحقيق العدالة في مستندات تحمل أدلة جريمتك.

إنك أنت الذي أمرت بالتصدير، إنك أنت الذي تحدثت بالتليفون، في الوقت الذي كان ينتظر فيه قاضي التحقيق وفاءك بوعدك.

لكن هذا ليس كل شيء فلقد ذهب المسيو روي إلى المسيو قطاوي ليتكلم معه شخصيًا، وإذا بهذا الدليل الذي قدمه من قبل، يؤكد ويؤكد، بدليل أقوى وأقطع.

فمن المتهم اليوم إن لم يكن إياك يا قطاوي!

انتقل "روي" في الغداة إلى مكاتب قطاوي وكان يجهل عملية الضبط التي حدثت من قبل في "المساجري مريتيم" فحاول أن ينكر لكنه لم يلبث أن تدهور.

وسنتكلم عن ذلك كلمة في محكمة الجنايات فلينتظر...

أثبت المسيو "روي" في محضره ما يأتي.

"انتقلنا إلى بنك قطاوي وجردنا دفاتر الحسابات

وسألناه عن الدفاتر الناقصة وبخاصة عن المدة السابقة على سنة ١٨٩٠ فأجابنا بأنها غير موجودة الآن.. (متسربة)..

وأنه سيتمكن من أن يضع الدفاتر بين يدي العدالة، إلا دفاتر الحسابات السابقة على سنة ١٨٩٠، فقد قرر لنا عنها وهو يعاني حيرة بادية "الظاهر أنها في القاهرة – لأن حسابات فرع باريس ترسل إلى القاهرة كل شعرة أعوام" فسألناه متى كانت آخر رسالة من هذا النوع، فأجاب بعد قليل من التردد: من أيام – ولما أخبرناه بما تم من إجراءات أمس في مكتب "المساجري مريتيم"، قال حرفيًا: "هذا صحيح" فسألناه: علام تحتوي هذه الصناديق، بدا له أن يعدل عن الإقرار الذي كان بسبيله، وقرر أنه يجهل محتوياتها، بل ويجهل – أيضًا – واقعة الرسالة التي نحن في صددها.

وقرأ هذه الأقوال – وأمضاها معنا. "روي"

إنني أدرك الاضطراب الذي يعانيه قطاوي.. فالكذب بغيض. لكن التعمية لا مناص منها وهي على كل حال ديدنه.

ألم تلاحظوا عليه في جلسة أمس أنه لم يُسأل سؤالاً، إلا حاول بقدرة خاصة، أن يراوغ كيلا يقول لا، ولا يقول بلى!

ولكن أنى لك أن تزوغ! إنك أنت الذي تحدثت في التليفون.. إنك أنت! وإن لك لنطقًا مصريًا للفرنسية لا يدع مجالاً للشك، يعرفه رئيس قسم التعبئة شخصيًا، إنك أنت الذي تحدثت في التليفون في اليوم السابق ومع ذلك تنكر في الغداة أنك تعرف شيئًا عن مسألة التصدير!

إن هذا ليقضي على قضيتك.

عندما يحاول مصر في متهم بالربا الفاحش أن يخفى حساباته فهو لا يصنع ذلك إلا واثقًا مما تحتويه من أدلة جريمته.

لقد أعجبت أمس بالهدوء المتعالي الذي خالط عبارات زميلي عندما قال "ليس لهذا أهمية، فسنقدم هذه الدفاتر للدفاع عن قطاوي. فلماذا إذن حاول قطاوي أن يقول إنه ليس الآمر بترحيلها، وإنما أصدر الأمر واحد من موظفي مصرفه!

ألا ما أعجبه مصرفًا مع صاحبه، وما أقل اطمئنان صاحبه عليه!.. ذلك المصرف الذي يستطيع المستخدمون المتواضعون فيه أن يرحلوا إلى الخارج كل حساباته، دون أن يعلم صاحبه شيئًا عما صنعوا!!

وسنسمع بعد لحظة بالعيب العجاب!.. حيث نرى مستخدمًا بسيطًا في المصرف يجيء من تلقاء نفسه أيضًا، ليستنفذ صاحب المصرف فيعرض على مدام همبير إنقاذه من السجن لقاء أن يعطيها هو – المستخدم – مليون فرنك؟..

فياله من مستخدم ذكي الفؤاد جسور؟ ففي اللحظة التي يهاجم فيها صاحب المصرف ذلك الهجوم، نرى موظفين مخلصين عند رجال أمناء، بل أقول: رجالاً أمناء عند أرباب مصارف.

ولننتقل الآن إلى حجة أخرى، إننا لم ننس أن مأمور الضبطية القضائية انتقل إلى قطاوي وأن قال له: "إن من غير الملائم أن يلقي المرء مأمور الضبطية القضائية زائرًا" وإن موظفًا في بنك قطاوي قال للمأمور "هذه أول زيارة من هذا القبيل لمصرفنا":

ألا فليصبرا قليلاً!.. فلن تكون تلك الزيارة هي الأخيرة، إذا كانوا صنعوا مع آخرين مثل الذي صنعوا معنا.

ارتاع قطاوي. فانعقد مجلس عسكري، وتصدر لإدارة الجلسة واستنهاض الهمم الخائرة، رجل كان اتزانه، وذكاؤه وهمته على قدر ما تتطلبه مخاطر الحالة، إنه زميلنا القديم، الذي لم تفارق ذاكرتنا مرافعاته، إنه فردريك ر... وهو من عنصر أجنبي، صاهر قطاوي فانعقد حلف عائلي بين مصر وبافاريا.. وبعد ضبط الدفاتر، وزيارة مأمور الضبطية أراد قطاوي أن يستسلم، فقال له ر.. "كلا يا عمي Papa يجب ألا نستسلم يا عمي Papa المقاومة واجبة يا عمي Papa.

ولا تنسوا أن زوج البنت الأكبر سنًا بكثير جدًا، من والد الزوجة؟ فله ولمواهبه كل الاحترام.

ولقد وجد رجل يسدي المشورة بالتبصر، سمعتموه وأعجبتم بقوة نفسه ومرونتها هو "فرنان كريميه" عضو مجلس النواب السابق وعضو مجلس الشيوخ الحالي، ونصح بزيارة "مدام همبير" فانتقل قطاوي إلى منزل تلك التي بلغت ضده بأنه ارتكب جريمة الربا.

لقد سبقت زيارته إياها زيارة مستخدمه، "المسيو بلادنشارديه" وقطاوي يؤكد لنا أنه يجهل زيارة مستخدمة هذا، وأنه لم يزرها إلا من تلقاء نفسه، لكن ر.. أكثر صراحة، فلقد سئل في وقت غير الذي سئل فيه صهره، فلم يتطابقا.. وقرر أن "بلانشارديه" زار دار "مدام همبير" ليعرف من "رمان دورنياك" ما تبغي أخته.

اعترف قطاوي.. ولم يك له معدي عن الاعتراف – بأنه قصد إلى دار "مدام همبير" ليتفاوض معها. ففيم كانت هذه المفاوضات.. وإذا كنت تريد من المحكمة أن تقتنع بشرفك فكيف تستطيع أن تسوغ له أنك كنت ثمة تضع نفسك تحت رحمة السيدة التي اتهمتك بالجريمة المخزية.

فيالها من زيارة مثبتة للجريمة، ومخزية معًا!.. لقد قبلت أن تدخل في مفاوضات مع "مدام همبير!.. وأن تعطيها مليونًا!.. أو أن تعيد لها أوراقًا تجارية وقعتها بهذا القدر، حررت صوريًا – للغير، وهي لك.. وتوسلت إليها أن تسحب شكواها. ووضعت نفسك تحت رحمتها عندما أحسست في تلك الليلة أنك ستبيت في السجن.

وفي نفس اليوم، في الخامسة، ذهبت مدام همبير مع أخيها إلى قاضي التحقيق تقول: "لقد كان قطاوي عندي، وركع تحت قدمي لأسحب الشكوى ويدفع لي مليونًا.. فماذا أصنع؟".

وإني أرجو حضرة القاضي أن يكذب أي كلمة غير صحيحة من هذا البيان..

فأجابها القاضي

"لا تقبلي هذه العروض – ففي بضعة أيام ستتالين – لا مليونًا واحدًا – لكن كل حقوقك، إنه أصبح في قضية العدالة، وليس لك الحق في إجراء التسويات معه، وأدلى المحضر بدلوه في الدلاء فقال "سيعين خبير يقرر لك كل ما تستحقينه".

تلك حوادث لا تنسى حدثت في أول أكتوبر سنة ١٩٠١!... وهي تأذن لنا بتقدير قيمة شكوى قطاوي ضد "مدام همبير" أنها بلغت فيه بلاغًا كاذبًا.

* * *

تعين خبير، وتقدم تقرير، لكن زميلي عن قطاوي يقول "إن عمل الخبير لا قيمة له لأنه وإن كان رجلاً ذكيًا أمينًا إلا أنه كان "مسحورًا" "بمدام همبير"

لقد نسى الزميل تلك الملحوظة الدقيقة التي صدر بها الخبير تقريره: وهي أنه جعل الإحساس الوحيد لعمله حسابات قطاوي التي حاول إخفاءها عن العدالة.. وإليكم بعض ما جاء بهذا التقرير (وتلا بعضًا مما جاء فيه) ثم قال:

أتراني بحاجة إليَّ أن أذكركم بما أكدته لنا مدام همبير من أنها في سنة ١٨٨٨ دفعت إلى قطاوي خمسمائة ألف فرنك عمولة لاقتراض ٨٠٠ ألف!

لقد قرأت قرير الخبير وهو رجل مؤدب، مهذب، رفيع الخلال، لا يميل إلى العبارات القاسية، فهو لا يقول عن قطاوي إنه مراب ولكنه يقول عنه: "إنه صاحب مصرف يضيف إلى عملياته إضافات".

والإضافات باللغة التي أعرفها هي الربا.

ولست وحدي أرى هذا الرأي ولكن رأيي يشاطرنيه قاضي التحقيق.

أيريد قطاوي بعد ذلك أن تقول عنه المحكمة إنه رجل شريف!.. يريد لهذا الرأس الذي تساوره هموم الملايين، وعمليات الاستغلال التي استنزفت الذهب من جيوب الفرنسيين، يريد له أن يكلل بهالة من الطهر والبراءة والفداء، كأنه من رءوس الشهداء!..

أخذ الخصوم على مدام همبير أنها لم تتكلم أمام قاضي التحقيق!..

إن لدينا في فرنسا فكرة غريبة عن الحرية تجعلنا نتأذى من استعمال المتهم أبسط الحقوق، حق عدم الإجابة في التحقيق!.. إن قاضي التحقيق مسلح بأخطر السلطات حتى ليصبح المتهم أعزل أمامه.. مع حضور محاميه، ذلك الحضور النظري، منذ قانون سنة ١٨٩٠، ومن واجبي أن أقول إن قاضي التحقيق قلد المتهمة محتميًا بسر المهنة "بسرية التحقيق" فلم يتكلم القاضي أمام "مدام همبير" أكثر مما تكلمت "مدام همبير" أمام القاضي.

وكما جاء المثل من عل جاء من أسفل.

ففي ٢٧ مارس سنة ١٩٠٢ دعى قطاوي أمام قاضي التحقيق: الذي يستجوبه كمرابٍ، فأجاب، وإليكم نص ذلك الجواب:

"قطاوي (مجيبًا): إنني أحتفظ بالجواب.. وسأطلب نسخة من الشكوى وتقرير الخبير وملحقاته".

هكذا – هكذا: لا كلمة اعتراض!.. ولا إشارة احتجاج! لقد كنت أنتظر منك أن أسمع صيحة الضمير الطاهر، المطمئن، فلم أسمع إلا الإجابة التاعسة طلب التأجيل.

بل إنك لتصطنع في سبيل الدفاع عن نفسك أغرب الوسائل وأشدها بؤسًا، فعندما تلقت النيابة طلب "المسيو ومدام همبير" للإدعاء مدنيًا اعترض قطاوي بلسان محاميه الذي أضاف إلى مركز المحامي نفوذ صاحب لقب "وزير في المستقبل" فقدم مذكرة يقول فيها:

"كان التحقيق سريًا حتى سنة ١٨٩٧ ولم يبق سريًا اليوم، بالنسبة للمتهم ومحاميه، أما المدعي المدني فيجب أن يظل بعيدًا عن الإجراءات".

وقدم دفعًا بعدم قبول التدخل من "مسيو ومدام همبير"، فهما لا يستطيعان التدخل، ولا توكيل محام للحضور عنهما في التحقيق، ولا حق لهما في الإطلاع على الأوراق.. وهكذا: بدلا من أن تنشر النور وتلتمس الحقيقة رحت تستعين بمحاميك لخنق إجراءات هي لا شك دائرة عليك.

ونقول إنك قدمت شكوى ضد مسيو ومدام همبير بأنهما "نصبا" عليك.. لكن شكواك لم تقدم إلا بعد التحقيق معك، فأنت تبحث عن مصلحتك وحماية ذاتك، وعندما شعرت أنك فقدت كل شيء، وأن أبواب السجن قد تفتحت على مصاريعها لاستقبالك، وأن الإجراءات الجنائية لا محيص عنها، عندئذ فقط قدمت شكواك.

لقد كان فزعك من السجن السبب الوحيد لالتجائك للنائب العام! لم تكن شكواك احتجاج رجل شريف ولكنها كانت دفاع قلبٍ هلوع.

إنك لا تتردد دون أي مناورة، أتذكرون يا حضرات السادة شهادة حسن السير والسلوك التي طلبها فأعطيها من "المسيو ومدام همبير" في ٣٠ من أكتوبر ١٨٩٣؟

إن جميع الذين ترافعوا في قضايا الربا الفاحش يعرفون أن المرابين عند ارتكاب جرائمهم يطلبون من أبناء العائلات أو السيدات المسرفات الذين يستنزفونهم شهادات مماثلة.

ألا ما أجمل أن نلتقي مرة أخرى بقطاوي أمام محكمة الجنايات!

– المسيور.. انتظر إذن حتى نكون ثمة، فستنتهي بأن تهيج غيظي.

– هنري روبير: حقيقة؟... إني أكون قد نجحت. فلا هم لي غير ذلك. أجل أيها السادة، فلسوف أهنئ المسيور. ولسوف أقول له "لقد كنت صريحًا في قضية الأمس، وإن تلك الصراحة لم تكن غريبة لدينا. لأن لنا بك عهدًا. وعندما اعتزلت المحاماة في باريس لتقف خدماتك على تنمية ثرائك جزعت نفوسنا لاعتزالك".

لقد أكد لنا قطاوي في بداية القضية أن هذه الشهادة لم تجيء عن طريقه. والرجل الشريف هو الذي يقول إنه يجهلها جهلاً تامًا... أما ر. فقد نظر إليها يعين لم تخدعه، فقدم لنا الإيضاح الطريف وهو أن الصورة المرافقة للدوسية محررة بخط أحد عماله القدماء.

* * *

والآن لم يبق لدى إلا كلمة واحدة لأنتهى.

يريد قطاوي منكم أن تقولوا إنه كان مجنيًا على سمعته في جريمة بلاغ كاذب فمن الرجل؟

أهو الفنان ذو العبقرية الخالقة، الرسام ذو البراعة الطائرة الصيت؟

أهو رجل من رجالات الأدب الذين يهزون بآثارهم أحاسيس الجماهير؟

أم خطيب عظيم يسحر الجموع ويدوي صوته في المجامع؟

كلا. إنه ليس إلا جماعًا للمال، منقبًا عن الأعمال!!

بلى لقد صنعت ثراءك، وجمعت ملايينك! أفتريد معها الشرف وتريد الاحترام؟!

ألا عز ما تبغي!

أيها السادة احتفظوا لآخرين غير قطاوي بشهادات التكريم والشرف. وستثبتون ببراءة "مسيو ومدام هبمير" أنكم تصدرون أحكامًا ولا تؤدون خدمات.

في محكمة الجنايات

٣- قضية بوبوروش

أمام محكمة الجنايات

حضرات القضاة:

حضرات المحلفين:

ساعتان طويلتان، واتهامان، أحدهما لا سبيل إلى تسكينه من المدعي المدني وثانيهما أكثر اعتدالاً، من الاتهام.

ومع ذلك ولأني أعرف القلب الكبير والنفس العادلة، عند الأفوكاتو العمومي، فقد ظللت أنتظر حتى اللحظة الأخيرة، أن يتنازل الرجل القضائي العظيم عن اتهام الرجل الذي أتشرف بالدفاع عنه "بوبوروش"، لكن ممثل الهيئة الاجتماعية، على نقيض ما توقعت قد طلب إليكم الحكم بإعدامه، إذ يراه مجرمًا، في حين أراه بريئًا... بل فريسة: وإليكم البيان.

ولكن هل أنتم بحاجة إلى ذلك البيان بعد المناقشات التي أدارها بين أيديكم حضرة الرئيس بجلال واستقلال ومقدرة جديرة بالاحترام، إني لم أتوقع غير ذلك ممن بلغ مؤلفه (الجريمة الأدبية) من النجاح ما تعرفونه، حتى ليبرز في مكتبة كل قانوني جدير بهذا الوصف.

لقد تتبعتم هذه الجلسات باهتمام عظيم، وأنت خاصة يا حضرة "المحلف الرابع" لقد وجهت من الأسئلة الدقيقة المنتجة ما طمأنني على متاعب الرجل الذي أدافع عنه..

عشرون دقيقة لا أكثر ولا أقل. ستأذن لي بإثبات براءة "بوبوروش" فهل أنتم بحاجة إلى سرد الوقائع؟

قضى "بوبوروش" كأشرف رجل في الدنيا، ليلة السبت ٢٦ يناير، في المقهى مع أصدقائه اللذين لا يفارقهم. والذين سمعتموهم في هذه الجلسات شربوا، ولعبوا، وكان مزاجه في أحسن حالاته، وهو يترنم بأغنيته التي يبدو أنه لا يتذكر سواها "للسلام تعمل مطرقتي".

وقصد إلى وكر غرامة حيث تنتظره السيدة التي شغفته حبًا والتي اعتبرها اليوم مثال الفضيلة المفترى عليها، السيدة "آديل"، على رغم ما فوجئت به من اللوم من فم رجل قضائي نافذ البصيرة – من أهل باريس! – كالأفوكاتو العمومي، لأنها تلبس جوارب حريرية، وتطلى أظافرها كل صباح.

إن على أن أنبهكم يا حضرات المحلفين إلى الشهادة المخلصة المؤثرة التي أداها في هذه القاعة خير أصدقاء موكلي، المسيو "بوتاس" لقد شهد أن "بوبوروش" قرر له "إن لدي صديقه كلها رقة، مدبرة، أحبها، ولن يخالجني الشك في إخلاصها لحظة" وأضاف: "إنني سعيد كل السعادة التي يستطيع رجل أن يظفر بها".

أنشودة بديعة، بليغة، من التقدير لكمال السيدة التي منحته النعيم.

بل إن من حقي، وواجبي، أن أعلن في هذه القاعة أن هذا الإيمان بالحب كان يبقى خالدًا، لو لم يتقدم في الظلام، بعد إغلاق المقهى، "رجل يلطخ هذا النعيم وينتزع من هذا الإيمان بهاءه فيدفع إلى ارتكاب الجريمة.

هذا الرجل، المجني عليه عندك يا حضرة الأفوكاتو العمومي. هو المجرم الحقيقي عندي، الذي لو قدرت له الحياة لكان عليه أن يؤدي الحساب للعدالة عما سكب من الأسى في قلب الرجل الذي يذرف الآن الدموع.

شهد أمامكم الرجل العظيم "جورج كورتين"، الذي ستضمه إلى أعضائها قريبًا أكاديمي "جونكور" ولم يحضر إلا ليشهد بما لبوروروش من فضل، ذكر لكم عن هذه الشخصية الغريبة للرجل العجوز المتوفي، مسيو سوب، إنه كان مستخدمًا متقاعدًا لا عمل له، يعاني آلام المعدة.

أراد الحظ ألا يكون في مخدعه الآن حيث كان مقدورًا عليه أن يبقى لضعف صحته من زمان، فذلك أول طيش كبير تورط فيه! إنه لا يعرف بوربوروش"، ومع ذلك ينقض عليه من غير مقدمات، بين اثنين من "خلصائه" ليقول له الكلام الذي تذكرونه.

إنكم لتذكرونها هذه الكلمات، وهي في نظري تشتمل على تحريض على القتل: رجل سعيد، لعله السعيد وحده، في الوجود، يملأ كيانه حب غامر، يؤمن بإخلاص الشخصية الممتازة التي تخيرها بين نساء العالم، يجيء إليه رجل ليقول له في وحشيته لا تغتفر: يا سيدي، إنني لا أعرفك لكنك مخدوع، بل هو يذهب إلى أبعد من ذلك، كأنما اعتورته شياطين الشر، فإن المتهم

لا يصدقه فيندفع الرجل إلى التحديد، ويزيد: في كل مرة طيلة سنوات ثمان لا تكاد تترك باب دارك، التي تنفق عليها من مالك، والتي تحتوي أعز آمالك، حتى يختفي فيها رجل.

لكن "بوربوروش" المسكين يستمر في عدم تصديقه فيتمادى الرجل إلى التهكم ويقول: هذا يقطع عليك سيجارك!؟

وبدأ "بوربوروش" يسائل نفسه: "أتخونني! أهكذا لم يعد لديها إحساس!".

ويستطرد الرجل فيجيبه: "إنها إذا لم يكن لديها عاطفة بالنسبة له فإن لديها الإحساس بالنسبة لسواه" ويستطرد، ويستطرد، حتى ليستشهد الجدران التي لا تحفظ أسرار الهوى المختنق.

إن من يستمع إلى هذا الطعن الشنيع فلا يختنق الطاعن، لا يكون إلا قديسًا! رأينا لا يغفر له ذلك؟

غلق المقهى أبوابه ومشى "بوبوروش" يترنح كأنما مسه خمار الكحول، وما هي إلا غيبوبة الأسى والكدر، في طريقه إلى وكر غرامه، فريسة لأعنف الأحاسيس.. ها هو ذا على الطوار المقابل لداره. ها هوا ذا: يتراءى له بين شقي النافذة ظلان.. عمل من أعمال الخيال المهتاج، قد حركه الإفضاء الشنيع الكاذب الذي أدلى به المسيو "سوب" فارتقى درج السلم، فصار في الشرفة. يعالن محبوبته بشكوكه التي قتلت كرامتها وقتلت حبها معًا، فأعلنت له براءتها، وأخذ يبحث في الدار عن الرجل الذي يظن أنه رآه.. فمدت يدها إليه بمصباح مضيء لينير كرامتها وظلام الدار.. لكن النسائم أطفأته فعاد الظلام.. إلا شعاعًا من النور ينساب من باب الدولاب الداخل في الجدار.. ففتحته.. وإذا فيه المسيو "أندريه" الفتى الذي سمعتموه في هذه القاعة يدلي بشهادته، في اتزان واعتدال، ويترك في نفس المحكمة الأثر الذي تركه في نفسي..

فماذا كان يصنع في ذلك الدولاب؟

تلك هي المسألة التي تتساءل عنها يا حضرة الأفوكاتو العمومي.. ولقد تساءل من قبلك المتهم..

وهنا أرجو أن تأذنوا لي باحترام رغبة بوبوروش، في هذا الشأن وهي ألا أجيب.. لقد فهمتموني من ثنايا الكلام.. إن هناك أسرار للعائلات ليس لأحد حق في اقتحامها، بل إن العدالة نفسها لتنحني أمامه، فلا تسأل عنها.

أجل: سر عائلي فيصلح بالك يا "بوبوروش". إني لن أهتك ستر هذا السر الذي تغار على حفظه من أجل شرفك، ومن أجل شرف السيدة "آديل" والمسيو "أندريه" فهما متضامنان معك في الاحتفاظ به، وفي إيداعه.

سر عائلي! يسوغ وجود "المسيو أندريه" في ذلك المكان الشاذ لو أبيح لي أن أذيعه لأعجبتم من فوركم بالرجل الذي أدافع عنه، إعجابًا بعدله ازدراؤكم للمجرم الوحيد في هذه القضية مسيو "سوب".

وسيدرك حضرات المحلفين معي ثورة نفسك "يا بوبوروش" عندما تناهى إليك وقع أقدام الرجل العائد في اطمئنان إلى مسكنه، بعد أن حطم سعادتك بغير داع، عند ذلك كانت وثبة "بوبوروش" نحو الباب، والكلمات العنيفة العادلة التي قذف بها في وجه القاذف. فحاول الرجل أن يفتح فمه، ترى أيريد أن يلوك لسانه وقاحة أخرى! إن من حق "بوبوروش" أن يخاف، من واجب "سوب" أن يبتلع لسانه.. لكنه يهم بالكلام وإن سبه أخرى ستهبط من بين شفتيه، ويجب ألا تهبط.. فليمنع "بوبوروش" الشر وهو في سبيل تكوينه، فيمسك بيديه عنق الرجل..

وفي الغداة، أسلم الرجل العجوز روحه.. ومن أجل ذلك جيء ببوبورش كالمجرمين إلى محكمة الجنايات.

* * *

قرر "الدكتور بول" في شهادته العلمية الجديرة بالإعجاب أنه إذا كان "سوب" مات نتيجة اختناق، فلا شيء يعين على التأكيد بأن صلة السببية قائمة بين الوفاة والضغط على العنق الذي وقع، وتلك واقعة قد سجلت لحسابنا في الجلسة.

إني أضيف أن هذا الحادث المؤلم – أيًا كان – يبدو لي كأنه قصاص جاءت به السماء للتهوين على الرجل الذي أدافع عنه، والذي يطلب العدالة منكم.

إنني أرجوكم أن تبرئوا "بوبوروش" حتى إذا أويتم إلى مساكنكم في هذا المساء استطعتم وأنتم تتناولون العشاء – أن تلقوا على زوجاتكم وبناتكم نظرات تتراءى فيها راحة الضمير.

وفي هذه الأثناء، في هذه الغرفة الصغيرة التي تعرفونها، حيث يبقى مقفلاً ذلك الدولاب، الذي أثار كل الصعاب سيجلس إلى المائدة "بوبوروش" مبرأ من "محلفي السين" محاطًا بشريكته وصديقه اللذين أسى إليهما ظلمًا، واللذين أقاما على الإخلاص له في بلائه.

* * *

"وبرئ "بوبوروش" وقضى على المدعي المدني بالمصاريف وصافح "بوبوروش" بتأثر "أندريه".

١ - فهرست الأعلام

(أ)

آنى داير ٢٦٠- ٢٦٤
الأسكندر ١٦٧
إبراهيم راتب ٦٠٠
إبراهيم شكرى ٢١٩
إبراهيم عبد الهادى ١٤٢- ١٤٧
إبراهيم مدكور ١٩٤
إبراهيم أفندى ٩٢
أحمد أبو الفتوح ١٧٤
أحمد إبراهيم ١٧٤
أحمد أمين (المستشار) ١١٤- ١٧٤
أحمد أمين (صاحب ضحى الإسلام) ١٧٤
أحمد حسنى ١١٥
أحمد حشمت ٢٦
أحمد حشمت أبوستيت ١٨٨
أحمد حلمى ٣٥
أحمد حمروش ٢٤٠
أحمد زكى باشا ٥٩- ٢٤٠
أحمد زيد ١٩٠
أحمد عبود باشا ١٤٠
أحمد زكى باشا ٥٩ - ٢٤٠
أحمد عبده خيرالدين ١٧٤
أحمد عصمت ١٢٦- ١٢٧- ٢١٠
أحمد فوزى ٢٤٠
أحمد سيف الدين ٢٧، ٧٠
أحمد شفيق باشا (الطبيب) ١٢٩
أحمد الصاوى محمد ٥٩
أحمد عرابى ١٨٢
أحمد مرتضى المراغى ٢٢٨- ٢٣٠
أحمد ماهر ٥٣
أحمد شفيق باشا (الطبيب) ١٢٩
أحمد عمار (الطبيب) ١٢٩
أحمد مرسى بدر ٢٠٠
أحمد نجيب الهلالى ١٢٠- ١٩٢- ٢٢٧
أحمد حسين ٢١٩،،
أحمد وفيق ٦٥
إسماعيل أباظة ٤٥- ١٦٥- ١٧٣
إسماعيل صدقى ١١٥
إسماعيل صالح ٢٨
أكثم بن صيفى ١٧٢
إميل دوس ٩٨
أمين أنيس باشا ١١٣
أمين الرافعى ١٧٣
أمين هويدى ٢٣٩- ٢٤٣
أنجى أفلاطون ٢٠٣
أنور السادات (الرئيس) ٢٤٠
أوديت سيمون ٣٠٠- ٣٠٦

(ب)

بابكر عوض الله ٢٣٩
بارتو ٣١٥
برييه ٣٩- ٤٧
بطرس غالى ٣١- ٤٢
بوانكاريه ١٠٥
بوند ٣٠- ٣١
بيكون ٣١٦

(ت)

توفيق (الخديوى) ١٨
توفيق الشاوى ١٧٦
توفيق رفعت باشا ٩٨

توفيق نسيم ١٧٥

(ث)

ثروت (عبدالخالق) ٢٦- ٤٧- ٥٨
ثروت أباظة ١٣١
ثروت عكاشة ٢٤٣
الثعالبى (الزعيم التونسى) ٦٦

(ج)

جامبتا ٤٢- ٨١
الجامع الأزهر ١٨٢
جامعة الإسكندرية ١٨٤
جامعة القاهرة ١٨٤
جامعة عين شمس ١٨٤
جامعة الدول العربية ٢٤٥
جمال الدين الأفغانى ١٣
جمال عبد الناصر (الرئيس) ٢٣٢- ٢٣٣- ٢٣٤- ٢٣٦- ٢٣٧- ٢٤١
الجمعية الخيرية الإسلامية ٢٦
جينى ١٩١

(ح)

حافظ رمضان باشا ١٩٢
حافظ إبراهيم ٣٣- ٥٩- ١٧٢
حامد زكى ٢١٢
حسن الجداوى ٨٨- ٣٠٥
حسن بغدادى ١٨٢
حسن صبرى ٤٧
حسن علام ٢٧٨
حسن عاصم ٢٤
حسن النحاس ٦٥
حسن فريد ٧
حسن الهضيبى ٢٢٢
حسين (السلطان) ٢٠- ٢١- ٢٦
حسين سرى ١٣٩،،
حسين رشدى ٢٦
حسين فخرى ٢٠١
الحسينى - أحمد بك الحسينى ٢٤
حفنى ناصيف ١٧٢
حفنى محمود باشا ٦٦- ٧٦
حلمى بهجت بدوى ١١٤- ١٩٠
حمزة فتح الله ١٧٢

(خ)

الخازندار ٢٤
الخديوى (إسماعيل) ٩٣- ٢٧٣
الخديوى (عباس) ٢٧، ٢٩

(د)

داجوسو ٤٠- ١٠٢
دار المعارف ١٦٥- ١٨٦
دراز ٦٣
دلسبس ٣١٢
دنشواى ٣١- ٤٤
دنلوب ١٩٠

(ر)

رياض باشا ١٨- ١٩

(ز)

زكى بدوى ١٣٩
زكى عبد المتعال ٢١٢
زكى المهندس ١٣١
زكى عربيى ٨٤- ٢١٧
الزنكلونى (الشيخ) ٦٣

(س)

سامى مازن (محمد سامى مازن) ١٦١- ١٩- ٢١٠- ٢٢٧

عزيز المصرى (الفريق) ٢١٠
عزيز خانكى ٨٢
عزيز ميرهم ٦١
عزيز أباظة (محمد) ١٩٠
على أيوب ٩٧
على شعراوى باشا ٥٢
على بدوى ١٧٥
على الحلوانى ٦٢
على الخشخانى ٢١٩
على فخرى ٢٦
على عبد الرازق باشا (الشيخ) ٦٤
على ماهر ٢٣- ٥٢
على يوسف ٤٦
عمر حافظ شريف ٢١٧

(ف)

فاروق (الملك) ٢٧
فاضل (الأمير) ١٩
فان دن بوش ٢٣١
فتحى رضوان ١١٩- ٢١٠- ٢٣٠
فتحى زغلول ٢٦- ٣١
فتح الله بركات ٥٥
فتحية عبد الرزاق أحمد السنهورى ١٦٤
فؤاد (الملك) ٩٣

(ق)

قاسم أمين ٧- ١٧٢
قطاوى ٣٣٢

(ك)

كامل شهاب الدين ٩٨
كيلنج ٦١
كتشنر (لورد) ٤٦
كرومر (لورد) ٤٥- ٤٧
كريمان خالص ٦٦
كين بويد ٦٥
كليبر ٥٨

(ل)

لابورث (قضية) ٣٢١
لابورى ١٠٢- ٣٠٧
لاشو ٨١- ٩١
لامبير ١٧٥- ١٧٩
لامرتين ٥٥- ١٣٤
اللقانى ٢٣
لينان دى بلفون ١٨٩
لطفى السيد - أحمد ٢٦
لطيف سليم باشا ٥٩
لوجريل ٢٢
اللواء الحديد ١٢٦
لى ستاك (حاكم السودان) ٥٣

(م)

مجلس الشيوخ ٨٨
مجلة مجلس الدولة ٢١٦
محمود يونس ٢٤٣
محمد زكى على ٢١٦
محمد زكى عبد المتعال (انظر زكى عبدالمتعال)
محمد زغلول باشا ٩٨
محمد سامى مازن (انظر سامى مازن)
محمد محمود جلال ٩٢
محمد صبرى أبوعلم (انظر صبرى أبوعلم)
محمد عفت ٢١٠
منصور باشا فهمى ٦٧
مصطفى الشوربجى ١٧٣- ٢٠٢
موسى عليه السلام ٧٦
مى زيادة ١١٥
محمد عبده ١٣- ١٧
محمد عبد العزيز ملوخية ٢٣٧
محمد فريد ٧
محمد فريد أبو حديد ١٩٥

سامى شرف ٢٣٩
سانتيز ٧٩
سعد زغلول ٥- ٧- ١٦٩- ١٧٣- ١٧٧
سعيد حلمى (اللواء) ٢٢٥
سليمان حافظ ١١٥- ١٦٨- ٢٠١- ٢٢٢
سليمان مرقص ١٩٠
سولانج موكلير ٩٧
سيد درويش ١٦٨- ١٩٥
السيد على السيد ١٢١- ٢٣٦- ٢٣٨
سيد المرصفى ١٧٢
سيف الله يسرى ٢٠٢

(ش)

الشافعى (الإمام محمد بن إدريس) ٢٤٦- ٢٤٨
شعراوى جمعة ٢٣٩
شفيق شحاته ١٩٠
شفيق منصور (محمد)٥٣،.. ١٧٣
شوقى (أحمد) ٢٣٤
شارل شالوم ١٢٩
شوڤو لاجارد ٣٩
شيشرون ٧١

(ص)

صلاح سالم ٢٤٠
صبرى أبو علم (محمد) ٢٣٦

(ض)

ضياء الدين شيت خطاب ١٨٨

(ط)

طاهر محمد ٢١٠
طاهر نور ٥٨
طلعت حرب ٢٤٧

(ع)

عادل يونس ٢٣٩
عاطف بركات ١٧٤
عبد الحليم الجندى ١٢٤
عبد الحميد (السلطان) ٩٣
عبد الحميد أبو هيف ١٨٦
عبد الحميد الوشاحى ١٢٤
عبد الحميد بدوى ٢٨- ١٦١- ١٩٧
عبد الحميد عبدالحق ٨٢
عبد المجيد عبدالحق ٢٢٥
عبد الرحيم غنيم ١٢٤- ٢٢٢
عبد الرحمن الرافعى ١٤٤- ١٩٢- ١٩٤
عبد الرحمن سيد أحمد ٧- ٨٦
عبد الخالق حسونة ٢٢٩
عبد السلام عبد الغفار ٨٢
عبد الفتاح حسن ٢٢٨
عبد الفتاح السيد ١٦٨
عبد العزيز آل سعود (الملك) ١٨٩
عبد العزيز البشرى ٧٩
عبد العزيز جاويش ٣٣
عبد العزيز فهمى ٥- ٧- ٢٨- ١١٥
عبد العزيز فهيم ٧٨
عبد العزيز محمد ١١٣- ١١٥- ١٢٤- ١٣١- ١٩٠- ٢١٥
عبد العظيم رمضان ٢٤٠
عبد المجيد عبد الحق ٢٢٥
عبد الله للوم ٥٨
عبد المنعم رياض ٢١٠
عبد الوهاب خلاف ١٧٤
عبد الهادى الجندى باشا ٨٦
عبد الوهاب عزام ١٧٤
عبده حسن الزيات ٦٧
عثمان حسين عبد الله ١٨٩- ٢٣٨
عثمان عبد الغفار ٦٧
عدلى يكن ١٦٦

(و)

والدك روسّو ٢٩٩- ٣١٥
وحيد رأفت ٢١٠
وحيد يسرى ٢٠٢
وليم بت ١١٨
الوردانى ٣٧
وهيب دوس ٨٧

(ى)

يوسف حلمى ٢١٠
يوسف وهبة ٢٦
يوجينى (الإمبراطورة) ٢٩٩
يونس صالح ٩٨

٢- فهرست المراجع العربية

١- مذكرات هلباوي بك – مخطوط.

٢- الكتاب الذهبي للمحاكم الأهلية.

٣- على هامش الدستور – للأستاذ محمد الشريف.

٤- أشهر القضايا المصرية – للأستاذ محمود كامل.

٥- من يوميات محام – للأستاذ عبده حسن الزيات.

٦- المحاماة قديمًا وحديثًا – للأستاذين عزيز خانكي بك – وجميل خانكي.

٧- المرافعة – للأستاذ حسن الجداوي.

٨- مرافعات – للأستاذ حسن الجداوي.

٩- تراجم – للدكتور محمد حسن هيكل باشا.

١٠- عبد الرازق أحمد السنهوري من أوراقه الشخصية. د. نادية عبد الرازق السنهوري ود. توفيق الشناوي.

١١- مذكرات قضائية (جزءان) عبد الحليم الجندي.

١٢- مذكرات سعد زغلول (جزءان).

١٣- سعد زغلول (مولد ثورة) محسن محمد.

١٤- مذكرات إسماعيل صدقي.

١٥- عبد الخالق ثروت مشرفة أحمد المليجي.

١٦- مقال د. عثمان حسين عبد الله مجلة المحاماة يونيو ١٩٨٨.

١٧- مجلة هيئة قضايا الدولة يونيو ١٩٨٩ الإمام السنهوري.

١٨- مجلة مجمع اللغة العربية.

١٩- من أجل مصر – البطل أحمد عصمت عبد الحليم الجندي.

٢٠- الإمام محمد عبده عبد الحليم الجندي دار المعارف

٢١- في أعقاب ثورة ١٩١٩عبد الرحمن الرافعي

٢٢- مقدمات ثورة ١٩٥٢ عبد الرحمن الرافعي

٢٣- مجلة مجلس الدولة ١٩٥٠

٢٤- المحامون وسيادة القانون عبد الحليم الجندي

٢٥- الأعمال التحضيرية للقانون المدني الجزء الأول.

٢٦- مجلة القانون والاقتصاد ١٩٣١.

٢٧- مجلة القانون والاقتصاد ١٩٣٦.

٢٨- نحو تقنين للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامي عبد الحليم الجندي طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٢٩- تقرير مجلس الدولة ١٩٤٧ – ١٩٤٨

٣٠- تقرير مجلس الدولة ١٩٤٩ – ١٩٥٠

٣١- تقرير مجلس الدولة المؤرخ أول أبريل ١٩٥١

٣٢- تقرير مجلس الدولة ١٩٥٣ – ١٩٥٤

٣٣- القضية المصرية (١٨٨٢ – ١٩٥٤ – وزارة الثقافة – مصر. المطبعة الأميرية).

٣- فهرست المراجع الأجنبية

١-٣٤ 1. The Life Of Sir Edward Marchall Hall – Marabanks.

٣٥- 2. La Profession d'Avocat. Appelton.

٣٦- 3. Menus. Propos Sur Les Avocats. Marcel Audibert.

٣٧- Le Bareau. Fernard Payen

٣٨- 5. Les Anthologies Des Avocats Francais Contemporains. Frnand Payen.

٣٩- 6. L'Avocat' Henri Robert.

٤٠- 7. Un Avocat De L'Annee 1832. Henri Robert.

٤١- 8. Le Palasis et La Ville. Souvenirs Henri Robert.

٤٢- 9. Les Grands Proces De I Histoire Henri Robert

٤٣- 10. Models Francais Edmond Proses.

٤٤- 11. Journal de L'universite des Annales 1911 – 1912

٤٥- 12. Les Grands Proces de I'anee 1932. Geo. London.

٤٦- 13. Lerur Maniere – Hesse et Nastrong Garsset.

٤٧- 14. L' Egyptienn' Revue Mensuelle. Fonda trice Hoda Charaowi. Mei 1936 12ehAn. N. 122

فهرست الكتاب

مقدمة ٥

الفصل الأول ١١

مدرسة جمال الدين ١٢

بواكير المجد ٢١

جلاد دنشواي ٣٣

محامي القضايا الوطنية ٣٨

الخريف العاصف ٦٤

فُتحت الجلسة ٨٢

رُفعت الجلسة ١٠٩

الفصل الثاني ١٢٨

المحاماة مهمة حياة ١٢٩

في هيئة قضايا الدولة ١٤٢

إلى المحاماة ومعركة الملك فاروق ١٤٩

في مجمع اللغة العربية ١٥٦

الرجل – والمحامي ١٦٠

(المذكرة الأنموذج) ١٦٧

الفصل الثالث..... ١٩١
تقديم ١٩٢
عروس البحر المتوسط..... ١٩٤
بين سعد زغلول ومصطفى كامل..... ٢٠١
السنهوري في مجلس الدولة..... ٢٥٢
في الجلسة..... ٢٦٣
مصر تحت الأحكام العرفية ٢٧٥
مع الثورة ٢٨١
الفصل الرابع..... ٣٠٣
المحامي الموهوب..... ٣٠٤
مع السلطة الثانية ٣٢٠
مع السلطتين الثالثة والرابعة ٣٢٤
المحامي الفنان..... ٣٣٦
في محكمة الجنايات ٣٤٤
قضية مرجريت فهمى.... ..... ٣٤٤
قضية يارموث ٣٥٠
روبرت وود ٣٥٥
محامي العصر الحديث ٣٥٩
الفصل الخامس: هنرى روبير..... ٣٥٩
في محكمة الجنح ٣٨٤

في محكمة الجنايات ٤١٠
قضية بوبوروش..... ٤١٠
فهرست المراجع العربية..... ٤١٧
فهرست المراجع الأجنبية ٤٢٣
فهرست الكتاب..... ٤٢٤

للمؤلف

١- أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح طبعة دار المعارف

٢- الإمام الشافعي ناصر السنة وواضع الأصول طبعة دار المعارف

٣- مالك بن أنس إمام دار الهجرة طبعة دار المعارف

٤- أحمد بن حنبل إمام أهل السنة طبعة دار المعارف

٥- الإمام محمد بن عبد الوهاب أو انتصار المنهج السلفي طبعة دار المعارف

٦- الإمام محمد عبده طبعة دار المعارف

٧- الإمام جعفر الصادق طبعة دار المعارف

٨- الشريعة الإسلامية طبعة دار المعارف

٩- نحو تقنين جديد للمعاملات والعقوبات في الفقه الإسلامي – طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

١٠- أئمة الفقه الإسلامي طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

١١- نجوم المحاماة في مصر وأوروبا طبعة دار الاتحاد العربي

١٢- مجموعة مذكرات قضائية (جزأين) طبعة هيئة قضايا الدولة بمصر

١٣- توحيد الأمة العربية طبعة وزارة الثقافة – مصر.

١٤- تطوير التشريعات طبعة وزارة الثقافة – مصر.

١٥- من أجل مصر (البطل أحمد عصمت) المطبعة التجارية – مصر

١٦- القرآن والمنهج العلمي المعاصر طبعة دار المعارف.

١٧- في السيرة النبوية طبعة دار المعارف

١٨- نحو تقنين للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامي طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

أبحاث منشورة

١٩- الشريعة الإسلامية مصدر رئيسي للتشريع – بحث مقدم لمجلس الأمة المصري عند إعداد الدستور سنة ١٩٧١.

٢٠- الشبهات التي تثار حول تطبيق الشريعة في العصر الحديث – بحث مقدم لمؤتمر الفقه الإسلامي بالرياض سنة ٧٦. مجلة هيئة قضايا الدولة سنة ١٩٧٨

٢١- نحو تقنين جديد للعقوبات من الفقه الإسلامي – بحث قدم للمؤتمر الثامن لمجمع البحوث بالأزهر.

٢٢- نحو قانون للمعاملات في الفقه الإسلامي. بحث بالإنجليزية ألقي في احتفالات مهرجان العالم الإسلامي لندن سنة ١٩٧٦.

Towards a contemporary civil law based on Islamic Legislation.

٢٣- نحو مشروع للدستور الإسلامي – بحث ألقي في المؤتمر العالمي للعيد الألفي للأزهر (مارس ١٩٨٣) مطبوعات المؤتمر.

٢٤- أثر دعوة محمد بن عبد الوهاب على الدعوات الأخرى – بحث مقدم لمؤتمر محمد عبد الوهاب – جامعة محمد بن سعود الرياض ١٩٧٩.

٢٥- بطلان التفتيش بغير إذن مجلة المحاماة ١٩٣٣.

٢٦- تصرفات السفهاء قبل الحجر مجلة المحاماة ١٩٣٧

٢٧- التشريع العربي كتاب الوطن العربي دار المعارف

٢٨- المكتبة الفنية — مجلة مجمع الفقه الإسلامي بجده

٢٩- بيع المتجر — مجلة مجمع الفقه الإسلامي بجده

رقم الإيداع ٨٧٦٩/ ١٩٩١

الترقيم الدولي ISBN 977 – 02 – 3552 – 0

١/٩٠/٧٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)